روايات الهلال

وصل القطار في موعده

هاينريش بول • ترجمة أحمد عمر شاهين



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا/ ١١٥ ليره – لبنان/ ٣٥٠٠ ليره – الاردن/ ١٥٠٠ فلس – الكويت/ ١ دينار – السعودية/ ١٠ ريالات – البحرين/ ١ دينار – قطر/ ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى/ ١٠ دراهم – سلطنه عمان/ ١ ريال.

العدد ٥٨٦

أكتوبر ١٩٩٧ ● جمادى الآخرة ● ١٤١٨ هـ

No - 586 - OCT - 1997

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقي دول العالم ٦٠ دولار.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٢٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

وصل القطار

فى موعده

بقلم

هاينريش بول

(الحائز على جائزة نوبل)

ترجمة

أحمد عمر شاهين

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية :

DERZUG Wat Punktlich

تأليف

HEINRICH BOLL

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

سمعوا القطار يتحرك، داخلا المحطة، فوق النفق المظلم الذى يعبرونه، ومكبر الصوت يعلن بهدوء : «القطار المغادر من باريس الى برزميسل عن طريق ..»

صعدوا الدرجات المؤدية الى الرصيف، ووقفوا أمام عربة يهبط منها رجال يحملون أمتعتهم، سعداء بإجازاتهم.

وكالعادة، خلا الرصيف من الجنود بسرعة، وكنت ترى، هنا وهناك، فتيات أو نساء يقفن فى النوافذ، أو أبا صامتا يتصنع المرح، ومكبر الصوت يحث المسافرين على الإسراع، فقد أزف موعد الرحيل.

سأل قسيس الجيش الجندى بقلق لماذا لايصعد إلى القطار؟

رد الجندى بدهشة: «ماذا تقول؟» ثم أضاف بعزم وهدوء: «ولماذا أصعد؟.. ألا يحق لى أن أقذف بنفسى تحت القطار، أو أترك المحطة، أو حتى أجن؟ لا أريد أن أموت، ذلك هو سبب ترددى» ، ثم أضاف: «لاتقلق. سأصعد فهناك مكان دائما، لاتغضب وصلِّ من أجلى لو سمحت !».

حمل حقيبته، وصعد داخلا من باب مفتوح أغلقه وراءه، فتح نافذة واستند عليها بينما مكبر الصوت يغمره بصوته كسحابة لزجة معلنا قيام القطار.

صاح «لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت. لكن المرعب أنى ذاهب للموت.. قريبا» .

بدا شكل القسيس، بملابسه السوداء، أصغر حجما، والقطار يبتعد، وظل يصغر حتى اختفت المحطة فى ظلام الليل.

غالبا ما يحدث أن تقال كلمة ما بطريقة عابرة، لكنها تكتسب فجأة معنى عميقا غامضا، تسقط من الشفتين متثاقلة، لكنها سرعان ماتستبق عقل المتكلم بسرعة خارقة وتطير الى المستقبل المجهول، تمزق حجب الغيب، وتعود لقائلها

باليقين المميت لسهم مرتد. ومثل موجة رمادية فى بحر من كلمات مهملة وسط وداعات الرصيف المملة المغمة، ترجع اليه الكلمة لتكشف له قوة المصير المرعبة المذهلة.

قوة الكشف هذه، تمنح فجأة للعاشقين والجنود، للمحكوم عليهم بالموت وللممتلئين بتيار الحياة الكونى، كشف مفاجىء بنعمة أو نقمة، وتغوص الكلمة المميتة فى أعماق نفوسهم.

وبينما يتحسس «أندريا» طريقه ببطء فى العربة المظلمة، اخترقته الكلمة كالرصاصة، بلا ألم فى البداية، وبدون ملاحظة تقريبا، إلى أن اخترقت الخلايا والعضلات والأعصاب، واستقرت هناك كخطاف بكلاليب، يتسبب فى جرح دموى طائش فى وعيه.

وشعر بنفسه يشحب حين فكر بذلك، لكن قلقه لم يمنعه من التصرف بشكل طبيعى،. بلا وعى تقريبا. أشعل عود ثقاب، واستطاع على ضوئه رؤية مجموعات الجنود فى الممر، مقرفصين أو نائمين على، أو تحت أو بجانب أمتعتهم. استقبل أنفه رائحة الدخان والعرق والغبار الخاص الذى يرافق تجمعات الجنود. أعطى لهب العود المنطفىء وهجة أخيرة ساعدته على اكتشاف مكان شاغر فى المساحة بين بابى العربة، شق طريقه تجاهه حاملا حقيبته تحت إبطه وقبعته بيده.

انتابه احساس كامل بالواقع، وخوف يغطس فى أعماق نفسه، فكر بأنه لن يرى ثانية هذه المحطة ولا وجه صاحبه القسيس الذى كان عنيفا معه فى لحظة الوداع.

وصل المكان الشاغر، وضع حقيبته على الأرض، حريصا ألا يوقظ النوَّم حوله، وجلس فوقها مسندا ظهره إلى باب العربة، وحاول أن يمد رجليه ليريحهما

بقدر استطاعته، فمد قدمه اليسرى بجانب وجه جندى نائم، وأراح الأخرى فوقها لتستقر على شنطة تسند ظهر نائم آخر.

أشعل أحدهم عود كبريت وراءه، وبدأ يدخن فى الظلام بصمت، لو استدار قليلا لاستطاع رؤية وهج السيجارة، وحين يسحب المدخن الانفاس فإن الوهج يضىء وجه جندى مجهول، شاحب ومتعب، ترتسم عليه علامات نكران الذات.

ودارت فى ذهنه كلمة «قريبا»، لكن كل شىء حوله عادى، ضجة القطار، رائحة الجند، ورغبته الخاصة فى أن يدخن، أن يدخن بأى ثمن، أى شىء ليظل مستيقظا، استطاع أن يرى من النافذة، خطوطا سوداء تحدد معالم مدينة يمرون بها، وبعيدا كانت الكشافات تجوب السماء كأصابع جثة طويلة، مخططة عباءة الليل، وسمع من بعيد أيضا، أصوات المدافع المضادة للطائرات، ولمح بشكل باهت البيوت المعتمة الصامتة.

متى ستكون «قريبا» هذه؟ الدم يندفع إلى قلبه ويخرج، حياته تتحول وتتحول، ودقات قلبه تقول كلمة واحدة «قريبا». لم يعد فى استطاعته القول «لا أريد أن أموت» أو حتى يفكر فى ذلك، وكلما حاول أن يبروز الكلمات، فإنها سرعان ماتتحول الى «سأموت قريبا».

وظهر وجه شاحب آخر على ضوء سيجارة خلفه، وسمع همهمة مرهقة هادئة، وبدأ المدخنان يتهامسان.

قال صوت: دريسدن.

أجاب الآخر: دورتموند.

استمرت الهمهمة وعلت بحيوية، فشتم شخص ما، فخفت الحديث ثم توقف، بقى مدخن واحد وراءه، وحين انتهت سيجارته، لم ير بجانبه سوى العتمة الخفيفة، وأمامه ظلام الليل مملوءا بمنازل لاتعد، مظلمة وصامتة. وعلى البعد استطاع أن

يرى أصابع الجثة الطويلة الغريبة الهادئة للكشافات، تتلمس طريقها فى السماء، وخطر بباله أن الوجوه صاحبة هذه الأصابع لابد أن تكون ساخرة ومكشرة بشكل مرعب مثل وجوه المرابين والخونة، تقول أفواهها الصابرة المضمومة: «سنجدك ولو اضطررنا أن نبحث عنك طوال الليل» وبدا كأنها تبحث عن بقة فى عباءة الليل، وعلى ثقة من العثور عليها.

★★★

قريبا.. قريبا.. قريبا.. متى تكون «قريبا» هذه؟ يا لها من كلمة مخيفة قد تعنى خلال ثانية او خلال سنة. تضغط المستقبل وتجعله محدودا، دون أن تعين زمنا بذاته، ليس فيها أى يقين، بل تشتمل، فى الواقع، على لايقين مطلق، فقد تعنى لا شيء وقد تعنى الكثير، فهى تغطى كل شيء فقريبا يأتى الموت، وقريبا سأكون ميتا، قلتها بنفسى، وقالها شخص داخلى، وآخر خارجى بأنها ستحقق. «قريبا» على أية حال تعنى خلال الحرب، هذا شيء مؤكد. لكن كم ستستمر الحرب؟ قد يتطلب الأمر سنة قبل استسلام الجبهة الشرقية، وإذا لم يهاجم الأمريكيون والبريطانيون الجبهة الغربية فقد يستغرق الروس سنتين للوصول الى المحيط الأطلسى، لكن، مهما حدث، فستستمر الحرب سنة أخرى على الأقل، لن تنتهى قبل نهاية ١٩٤٤. هذه الحرب منظمة بشكل جيد، جبانة تماما، وشجاعة تماما، بحيث لاتنتهى قبل ذلك.

وهكذا لدّى فرصة لأعيش لمدة ثانية او سنة، كم ثانية فى السنة؟

سأموت قريبا وقبل أن تنتهى الحرب، لن أعرف السلام ثانية أبدا. لا سلام لى، لن تكون هناك موسيقى أو زهور او شعْر أو فرح انسانى، فقريبا سأكون ميتا، «قريبا» هذه تشبه ومضة البرق. هذه الكلمة الصغيرة هى الشرارة التى تشعل العاصفة، وفجأة فى جزء من ألف من الثانية، يصبح العالم كله متوهجا.

رائحة الأجساد البشرية هى نفسها كما كانت دائما، رائحة القذارة والغبار وطلاء الأحذية. إنه أمر غريب، كيف تكون هناك قذارة حيث يوجد الجنود؟

أصابع الجثة أمسكت بالحشرة.

أشعل سيجارة من تبغ طازج، وبدأ يخطط مستقبله.

ربما «قريبا» هذه نوع من الوهم، ربما لأنى مرهق جدا ومنفعل تماما. فقد تركت نفسى لترتعب منها، فلأفكر ماذا سأفعل حين تنتهى الحرب. سا.. سا.. هناك حائط أمامى يسد طريقى، حائط أسود تماما لا استطيع أن أفكر بما وراءه. استطيع، بالطبع، أن أرغم نفسى على إكمال الجملة.. سأدرس، وستكون لى غرفة فى مكان ما، وتكون لدّى الكتب والسجائر والموسيقى والشعر والزهور.. لكن ذلك لايُجدى فأنا أعرف أنه لن يحدث، فهذه ليست أحلاما حقيقية للمستقبل. انها مجرد أفكار باهتة لاتُرتجى، دون جسد أو دم أو حياة. المستقبل بلا وجه، وجهه مبتور، وكلما فكرت فيه أكثر. شعرت كم هى قريبة تلك الكلمة، «قريبا» سأموت، وذلك يقين ينتظرنى بين ثانية وسنة، وتلك نهاية أحلامى.

ربما خلال شهرين، حاول أن يفكر بالكلمة من ناحية الوقت، يريد أن يكتشف هل يمكنه أن يصل إلى الحائط الذى لايمكن اختراقه قبل انتهاء الشهرين القادمين؟ شهران، هذا يعنى قبل نهاية نوفمبر. لكنه لايستطيع أن يقيس المستقبل. إن الشهرين المفترضين فكرة بلا قوة، فمن الممكن أن يقول ثلاثة أشهر أو أربعة او ستة، لايوجد اى جرس فى هذا التاريخ المفترض، فكر فى يناير، لكن لايوجد حائط هناك، واستيقظ بداخله أمل غريب قلق، وانبثق امامه مايو فجأة، لايوجد شىء هناك، حائط مصمت. هذه الـ «قريبا» لا شىء سوى شبح شاحب. وقفز فكره إلى نوفمبر التالى، لا شىء، وتلبسه فرح وحشى

مخيف، يناير، سنة وربع أمامه، لا حائط، تنهد بسعادة وواصل التفكير بالمستقبل . جرى فكره فوق السنين كما لو انها حواجز خشبية منخفضة سهلة، يناير، مايو، ديسمبر،. لاشيء، وفجأة شعر أنه يدخل الفرا غ، وأدرك أن هذه التأملات فى الزمن لن تساعده على أن يجد مكان الحائط. الزمن لا أهمية له، فهو لايلعب أى دور فى حسه الداخلى، ومع ذلك ظل أمله حيا، فقد قفز حواجز الشهور بسهولة، اما السنين..

قال لنفسه «قريبا سأموت» وشعر كالسابح الذى يرى نفسه قرب الشاطىء، وفجأة تسحبه موجة عاتية الى البحر ثانية. «قريبا» حيث يقوم الحائط ولا أكون هناك على سطح الارض .

وتخطر بذهنه فجأة بلدة «كراكوف» وتوقف قلبه، كأن شرايينه قد عقدت وتوقفت عن ضخ الدم. وشعر أنه على الأثر الصحيح. «كراكوف» لا شىء هناك، ويسافر بفكره الى الشرق.. «برزميسل» . لاشيء «لفوف» لا شيء، وتسابقت افكاره قدما الى مدن : «تشيرنوفتسى» «جاسى» ، «كيشينيف» ، «نيكوبول» .. وعند الاسم الأخير ادرك أن هناك مكانا شاغرا، قطعة صغيرة فارغة من الرغوة مثل كلمة «سادرس»، قال لنفسه لن أرى «نيكوبول» ثانية، عاد الى «جاسى» صفحة بيضاء لن ارى «جاسى» ثانية ايضا ولا «تشيرنوفتسى»، اما «لفوف» فنعم ، «لفوف» ايجابية ، سيصل الى «لفوف» حيا .

فكر «انا مجنون ، عقلى يتجول، لكن يبدو انى سأموت بين «لفوف» و«تشيرنوفتسى» ياله من جنون» .

اجبر افكاره على ان تسير فى قنوات اخرى وبدأ يدخن ثانية، ويحدق فى وجه الليل المظلم ، قال لنفسه : «أنا مصاب بالهلع، لقد فقدت رشدى ادخن كثيرا واحدث نفسى ليل نهار ، لا آكل شيئا ، فقط ادخن واتحدث.. وذلك يكفى لبعث

الجنون في نفسي ، لابد أن آكل واشرب . فالطعام والشراب يحفظان الجسد والروح متناغمين اللعنة على هذا التدخين المتواصل» .

بدأ يتلمس حقيبته ويجهد عينيه بحثا عن السوستة، في الظلام . ثم وهو يبحث وسط السندويتشات والملاءات والسجائر وزجاجات الخمر، غزاه شعور كئيب عاتٍ من التعب، وكأن الدم توقف عن الجرى في عروقه ، وراح في سبات عميق. حقيبته مفتوحه امامه ، واحدى قدميه تمتد في مواجهة جندى نائم، والأخرى تستريح على متاع شخص آخر، بينما يداه المتعبتان والقذرتان الآن تقعان على حقيبته ، ورأسه ساقط على صدره .

★★★

استيقظ على شخص يدوس على اصبعه ، ألم مفاجيء جعله يفتح عينيه، شخص ما كان يمر بسرعة ، فاحتك بظهره، وداس على يده. كان الضياء ينتشر ، ومكبر الصوت يعلن اسم المحطة بنبرات دافئة ، وادرك ان القطار قد وصل الى «دورتموند» . الرجل الذى كان يدخن ويهمهم خلال الليل نزل متعثرا يصب اللعنات، لقد وصل صاحب الوجه الشاحب هذا الى وطنه . استيقظ الرجل الذى بجانبه ، والذى يسند ظهره على حقيبته ، وجلس يفرك عينيه في الممر البارد، بينما الجندى على جانبه الآخر ، والذى كانت قدم اندريا امام وجهه ، مازال نائما .

فتيات يحملن علبا يتصاعد منها البخار ، كن يجبن المحطة ، كل شيء عادى نساء تبكي، وآباء ، وفتيان تقبل ، كل شيء طبيعي، حسه الداخلي مجرد جنون، لكن في أعماق قلبه، وبمجرد أن فتح عينيه، كان شبح كلمة «قريبا» لا يزال هناك . الشوكة منغرسة عميقا في نفسه، وتساءل : ألن يتخلص منها ابدا ؟ لقد احتجزته «قريبا» هذه تماما في صنارتها، وسيظل يتخبط هناك حتى يصل الى مكان ما بين «لفوف» و«تشيرنوفتسي» .

الجنون فى نفسى ، لابد أن آكل واشرب . فالطعام والشراب يحفظان الجسد والروح متناغمين اللعنة على هذا التدخين المتواصل» .

بدأ يتلمس حقيبته ويجهد عينيه بحثا عن السوستة، فى الظلام . ثم وهو يبحث وسط السندويتشات والملاءات والسجائر وزجاجات الخمر، غزاه شعور كئيب عاتٍ من التعب، وكأن الدم توقف عن الجرى فى عروقه ، وراح فى سبات عميق. حقيبته مفتوحه امامه ، واحدى قدميه تمتد فى مواجهة جندى نائم، والأخرى تستريح على متاع شخص آخر، بينما يداه المتعبتان والقذرتان الآن تقعان على حقيبته ، ورأسه ساقط على صدره .

★★★

استيقظ على شخص يدوس على اصبعه ، ألم مفاجىء جعله يفتح عينيه، شخص ما كان يمر بسرعة ، فاحتك بظهره، وداس على يده. كان الضياء ينتشر ، ومكبر الصوت يعلن اسم المحطة بنبرات دافئة ، وادرك ان القطار قد وصل الى «دورتموند» . الرجل الذى كان يدخن ويهمهم خلال الليل نزل متعثرا يصب اللعنات، لقد وصل صاحب الوجه الشاحب هذا الى وطنه . استيقظ الرجل الذى بجانبه ، والذى يسند ظهره على حقيبته ، وجلس يفرك عينيه فى الممر البارد، بينما الجندى على جانبه الآخر ، والذى كانت قدم اندريا امام وجهه ، مازال نائما .

فتيات يحملن علبا يتصاعد منها البخار ، كن يجبن المحطة ، كل شىء عادى نساء تبكى، وآباء ، وفتيان تقبل ، كل شىء طبيعى، حسه الداخلى مجرد جنون، لكن فى أعماق قلبه، وبمجرد أن فتح عينيه، كان شبح كلمة «قريبا» لا يزال هناك . الشوكة منغرسة عميقا فى نفسه، وتساءل : ألن يتخلص منها ابدا ؟ لقد احتجزته «قريبا» هذه تماما فى صنارتها، وسيظل يتخبط هناك حتى يصل الى مكان ما بين «لفوف» و «تشيرنوفتسى» .

في لحظة استيقاظه، أمل للحظة أن تكون «قريبا» ، قد اختفت مثل الليل، بعد حديث وتدخين دائم - لكنه وجدها مازالت هناك عنيدة لا ترحم .

نهض . نظر الى حقيبته نصف المفتوحة ، واعاد اليها قميصا كان قد انزلق خارجها. الرجل الذى على يمينه، فتح نافذة وكان يرفع كوبا تصب له فيه بنت نحيلة متعبة بعض القهوة. رائحة القهوة الساخنة الخفيفة، بعثت في نفسه الغثيان وقلبت معدته. فهى تحمل رائحة الثكنات ومطابخ الجيش التى كانت تنتشر فى اوروبا كلها، وستنتشر قريبا فى العالم كله ، ومع ذلك - ولأن العادة جذورها عميقة - رفع كوبه ليمتلىء بقهوة بلون بزته .

شم رائحة الفتاة المبتذلة - كالبول - وخمّن انها نامت بملابسها ، وسارت من قطار الى قطار تسحب حامل قهوتها . لقد شم الكثير من رائحة هذه القهوة الكريهة، وربما نامت البنت قرب الوعاء على الموقد الذى يحفظها دافئة، تنام فى الفترة ما بين قطارين. بشرتها شاحبة ومقشفة، مثل الحليب القذر وشعرها الاسود القليل المعقوص تحت قبعتها المسطحة بدا بلا لون ، لكن عينيها كانتا وديعتين حزينتين ، وحين انحنت لتصب القهوة فى كوبه استطاع ان يرى جمال عنقها، كم كانت لطيفة هذه الفتاة ، كل واحد يراها قبيحة لكنها لطيفة بل حتى جميلة ، يا لأصابعها الرقيقة ! اود لو راقبتها لساعات وهو تصب القهوة، لو كان الكوب مثقوبا لتستمر اللعبة، واظل انظر لعينيها الجميلتين وجيدها الساحر . لو يظل مكبر الصوت صامتا، مكبرات الصوت هى السبب فى كل بؤسنا ، هى التى ابتدأت الحرب، وهى التى تديرها ، الحرب فى المحطات فليأخذ الشيطان كل مكبرات الصوت .

انتظر الرجل ذو الكاب الأحمر بانصياع انطلاق كلمة مكبر الصوت ليتحرك القطار . غادرة القليلون وحل مكانهم اخرون .

كان اليوم صافيا.. والوقت مبكرا، السابعة تقريبا. وفكر اندريا «لن أعود لاقطع هذا الطريق عبر «دورتموند» .. لن أعود ابدا. شيء غريب في «دورتموند» هذه ، دائما امر بها بالقطار ، ولم تتح لي فرصة واحدة لادخلها لن أعرف ماذا تشبه هذه المدينة ، ولن أرى ثانية هذه الفتاة بوعاء قهوتها . سأموت قريبا بين «لفوف» و «تشيرنوفتسي» .. لقد تقلصت حياتي الى بضعة كيلو مترات .. لا شيء سوى وصلة من خط حديدي . لكن هناك امرا غريبا حول كل هذا ، فلا توجد جبهة قتال بين المدينتين ولا كثير من رجال المقاومة ، ربما تراجعت خطوط القتال الى ذلك المكان في الليل ، ربما اقتربت الحرب فجأة من نهايتها ، ربما يأتي السلام قبل «قريبا» هذه ، هل تحدث كارثة مروعة ؟ ام يموت الوحش المقدس ام يقتل ؟ أو ربما قام الروس بهجوم عام واندفعوا داخل جبهتنا بين «لفوف» و«تشيرنوفتسي» ، وأن قواتنا قد استسلمت .

مهما كان الأمر فقد بدا ان لا مفر لـ «اندريا» .

استيقظ النُوّم في هذا الوقت، وبدأوا يأكلون ويشربون ويثرثرون .

استند على النافذة المفتوحة ، وترك الهواء البارد يداعب وجهه .

فكر «سأسكر ، سأشرب زجاجة كاملة، فذلك يخرجني من التفكير ، حتى «بريسلاو» على الأقل» .

انحنى وفتح حقيبته بسرعة، لكن يدا خفية منعته من أن يمسك بالزجاجة، اخرج سندويتشا وبدأ يمضغ ببطء وهدوء. وفكر : «كم هو بغيض ان يكون عليك أن تأكل قبل أن تموت، سأموت ومع ذلك لا بد أن آكل. سندويتشات محشوة بشرائح السجق ، تلك التي يسمونها سندويتشات الغارات الجوية. صديقه القسيس جهزها له ، هناك علبة كاملة منها، والأسوأ أن طعمها جيد» .

واقفا في النافذة المفتوحة ، أكل السندويتشات بهدوء. وبين حين وآخر ينحني

ليتناول واحدا من حقيبتــه المفتوحة، وبين الفينة والفينة يرشــف من القهوة الفاترة .

كانت مزعجة الحملقة فى البيوت البائسة التى يستعد العبيد فيها للذهاب الى مصـــانعهم ، بيت فوق بيت فوق بيت ، وكلها مسكونة بمخلوقات آدمية تأكل وتشرب ، وتضحك وتبكى ، تقاسى وتنتج صغارا ربما يموتون غدا . نساء عجائز واطفال مدنيون وجنود ايضا .. فقد رأى جنديا يطل من نافذة هنا وهناك ، كل منهم يعرف بالضبط متى يلتحق بالقطار ليعود ثانية الى الجحيم ..

سمع صوتا اجش وراءه يقول : هل تلعب معنا يا رفيق ؟

ولدهشته اجاب : بنعم .

لاحظ اوراق اللعب فى يد جندى غير حليق ، نظر اليه بابتسامة . اومأ وتبعه. كان الممر فارغا إلا منهم ، غير الحليق وشاب بشعر اشقر ووجه انثوى يقرفصان مبتسمين .

سأل الأشقر : هل وجدت شخصا ؟ .

قال غير الحليق بصوته الاجش : نعم

جلس على حقيبته التى جرها معه. كلما انزلها كانت خوذته تتحرك محدثة صوتا، والآن حين رآها تنبه الى أنه نسى بندقيته . تذكر أنه تركها فى ركن من دولاب صديقه «بول» وراء غطاء السرج . وابتسم لتلك الفكرة .

قال الولد الاشقر : انس ما يشغلك .. والعب معنا لعبة صغيرة . هيأ الجنديان مكانا مريحا، كانا يجلسان أمام أحد أبواب العربة . وكان الباب قد أغلق بربط مقبضه بسلك ، وتكومت قطع المتاع وراءه اخرج غير الحليق زردية من جيبــه – كان يرتدى «اوفرولا» ازرق وجذب لفة من السلك من تحت حزمة من الامتعة ، وبدأ يلفها بسرعة حول مقبض الباب حتى لا يفتحه اى داخل .

قال الاشقر : تلك هي الطريقة يا رفيق .. وليلعنونا حتى برزميسل لكن احدا لن يصعد من هنا .

اومأ أندريا ، وقال الآخر : اعتقد ذلك .

ادرك اندريا، على الفور أنهما مخموران ، فقد كان لدى غير الحليق مجموعة من الزجاجات في صندوق عزم بها عليهما . بدأوا اللعب ، دوى صوت القطار ، واضحى النهار أكثر سطوعا .

توقفوا على محطات بمكبرات صوت وأخرى بدونها، أفرغ القطار نفسه وملأها عدة مرات لكن الرجال الثلاثة استمروا في اللعب في ركنهم . أحيانا في محطة ما كان الناس يدقون على الباب المغلق ويلعنون لأنهم لا يستطيعون الصعود، فيضحك الثلاثة ويواصلون لعبهم . وحين تفرغ زجاجة ، كانوا يلقونها من النافذة .

كان اندريا يلعب دون ان يفكر في اللعب ، فلعبة الحظ هذه سهلة وليس على المرء أن يركز ، ويمكنه أن يفكر في أشياء أخر . وفكر «لابد أن «بول» استيقظ الآن ، هذا اذا نام أصلا ، فربما كان هناك ما يجعله مستيقظا ، لو نام فلساعات قليلة فقط ، لابد أنه عاد الى البيت في الرابعة صباحا، اتوقع انه نام حتى الثامنة ، ثم استيقظ واغتسل، وذهب الى الكنيسة ليقيم القداس ويصلي من أجلي. يصلي من أجل أن أكون سعيدا » .

قال اندريا : اسحب .

فكرة رائعة ، يقول المرء «اسحب» فقط، ثم يعاود التفكير ..

وعاد بعد ذلك الى البيت ، ودخَّن غليونه ، وتناول بعض الطعام، سندويتشات الغارات الجوية ربما، ثم خرج ثانية، ربما ليرى فتاة تنتظر طفلا غير شرعي من جندي ، او ربما ليزور احدى الامهات ، او الى السوق السوداء ليشترى بعض السجائر .

قال اندريا «باصره» وكسب ، لقد كسب ، حتى الآن ، كومة من النقود .

قال غير الحليق : انت محظوظ يا رفيق .. اشربوا يا أولاد .

وأدار عليهما الزجاجة ثانية . كان يعرق ، ووجهه حزين ومهموم تحت قناع البشاشة ، وكان الدور عليه ليوزع الورق .

سعد اندريا لأن الدور ليس عليه في التوزيع ، فذلك يمنحه دقيقة اضافية للتفكير .. «لكن بول الذي يسير الآن متعبا وشاحبا ، وسط أكوام حجارة الدبش، يصلي طوال الوقت . أنا استهين به، لا ينبغي للمرء أن يستهين بأحد حتى لو كان ضابط شرف» .

صاح : ثلاثة وزوج .. وفاز ثانية ..

ضحك الآخران ، إنهما لا يهتمان بالنقود، كل همهم قتل الوقت ، يالها من عملية مضجرة مخيفة ، عملية قتل الوقت هذه .

قال مكبر الصوت «نوردهاوسن» ، كان اندريا يفنط الورق، «القطار المتجه الى «برزميسل» عن طريق ...» اصعدوا من فضلكم واغلقوا الابواب ..

كل شيء طبيعي تماما ، وزع الورق ببطء ، كانت الساعة الحادية عشرة تقريبا ، وما زالت هناك خمر. قال بضع كلمات شكر لغير الحليق على الخمر.. امتلأ القطار ثانية ، وتزايد الزحام حولهم، كان هناك مشاهدون عديدون ، لم يعد الأمر مريحا، ولم يستطيعوا تجنب سماع ثرثرة المحيطين بهم .

«اسحب» قال اندريا ، وتنافس الآخران بمرح، كل منهم كان يغش وكلهم يعرفون ذلك، وسيفوز اكثرهم غشا، لكنهم كانوا يضحكون.

قال جندي وراءهم بلهجة شمال المانيا «لقد فزنا عمليا بالحرب» .

فهمهم صوت آخر، بينما قال صول ثالث : وهل يخسر الفوهرر حربا؟!

من السخف التحدث عن الفوز فمن يتكلم عن كسب الحرب لابد أن يفكر في احتمال خسرانها، «حين نبدأ نحن الالمان حربا، فحتما سنكسب».

قال صوت رابع : «الكريميا انتهت والروس يدقون أبواب بيريكوب .» .

وجاءهم صوت ضعيف واهن «يجب أن اذهب الى الكريميا» .

صمت اولئك الذين لم يتفوهوا بشيء كان مفزعا ، صمت اناس لم ينسوا ما حدث ويدركون انهم ضائعون .

فنط الجندى الاشقر الورق ووزعه . راهن غير الحليق على خمسة عشر ماركا وحين رأى اندريا أن ورقه مكتمل قال : اجعلها مائة ، فرفع غير الحليق الرهان الى ٢٤٠ ماركا. وحين خسر، قال صوت من ورائهم بهزة من الرأس ولهجة مستنكرة «٢٤٠ ماركا» .

مضت دقيقة صمت بعد ذلك العراك على الجائزة. لكن الحديث انفجر الآن ثانية.

قال غير الحليق : اشرب .

قال صوت : لكن ماذا فعل بعض المجانين بالباب ؟

– أى باب ؟

– وغد . منحط ربط الباب حتى لا يصعد الناس .

– اغلق فمك .

وصل القطار الى محطة دون مكبر صوت فليبارك الله كل المحطات التى بدون مكبرات . استمرت ضجة الحديث، ونسى الباب المغلق والـ ٢٤٠ ماركا .

ولاحظ اندريا أنه سكران قليلا :

قال : هل نتوقف عن اللعب قليلا .. اريد أن آكل شيئا .

صاح غير الحليق : لا .. ولا بأى ثمن . سيستمر اللعب حتى نصل الى برزميسل .

كان صوته محملا بالخوف ، تثاءب الجندى الاشقر وبدأ يتمتم ، ولكن غير الحليق صاح ثانية : لا .

قال صوت : «نحن نكسب الحرب بمدفع رشاش ٤٢ وحده .. لا شيء يقف أمامه» .

قال آخر : الفوهرر سيكتسحهم قريبا .

صمت اولئك الذين لم يتكلموا مازال مفزعاً .

كان القطار يزدحم أحياناً ، حتى بالكاد يستطيعون حمل أوراقهم ، كان الثلاثة ، الآن ، سكارى ، توقف القطار على محطات ، وسمعت أصوات المكبرات ، وأصوات عادية ، وفرغ القطار ثانية ، وكان منتصف النهار . أكلوا أثناء اللعب ، واستمروا فى الشرب ، كانت خمر «الشنابس» جيدة .

قال غير الحليق : إنها خلطة فرنسية .

وبدا الآن غير حليق أكثر من أى وقت مضى . كان وجهه شاحبا تحت شعر وجهه ، وعيناه حمراوين . لم يكسب إلا نادرا ، وبدا أنه يمتلك كثيرا من النقود ، وبدأ الأشقر يكسب كثيرا الآن ، لعبوا عدة ألعاب . وفجأة سقطت الأوراق من يد غير الحليق ، ومال رأسه إلى الأمام وبدأ يشخر بطريقة رهيبة . رفعه الأشقر بعطف ، وأجلسه وظهره مستند إلى الحاجز بحيث ينام مستريحا ، غطى قدميه بخرقة ، ووضع له أندريا النقود التى كسبها منه فى جيبه .

وفكر أندريا : كم هو لطيف وعطوف هذا الأشقر مع غير الحليق .. لم أكن أتوقع ذلك منه . ترى ماذا يفعل «بول» الآن؟

وقف أندريا والأشقر ، تمطيا ونفضا حجريهما من بقايا الطعام ورماد السجائر والغبار ، وألقيا بزجاجات الخمر الفارغة من النافذة . كانوا يمرون بمنطقة رعوية ، وحدائق جميلة على اليمين واليسار ، وتلال متدرجة الانحدار وسحب ضاحكة – عصر يوم خريفى رائع .

قريباً سأموت ، حاول ، وهو يلعب الورق ، أن يصلى ، لكنه لم يستطع

التخلص من التفكير فى المستقبل ، حاول أن يكون جملاً تتفق مع تواريخ قادمة ، لكنها جميعا كانت لا معنى لها . حاول ثانية أن يحدد الامتداد الزمنى لحياته بمقياس الوقت ، وكانت نتائج عمله كالفقاعات الفارغة ، وكان عليه أن يفكر بكلمة «برزميسل» ليعرف أنه على الطريق الصحيح . «لفوف» كانت تجعل قلبه يقف ، لكن «تشيرنوفتسي» كانت فراغا مجدباً ، لابد أن الأمر سيكون فى موقع ما بينهما ، لا يستطيع أن يحدد أين ، فليس لديه خريطة فى ذهنه . سأل الأشقر الذى كان ينظر من النافذة : هل لديك خريطة ؟

أجاب مشيرا إلى غير الحليق : لا . لكنه يملك واحدة . أعرف ذلك . كم هو تعب فى نومه .. هناك ما يشغل تفكيره .. إن هذا الزميل لديه شيء رهيب فى ذهنه .

نظر أندريا بصمت خارج النافذة من فوق كتف الأشقر ، وعلا مكبر الصوت بلهجة سكسونية قائلا «راديبول» ، صوت ألمانى قوى مخلص ، يبدو كمن يقول «العشرة آلاف الأخرى إلى المسلخ لو سمحت» .

كان يوما خريفيا رائعا كأيام الصيف . وفكر أندريا «لن أرى تلك الشجرة ثانية . تلك الشجرة البنية المحمرة أمام البيت الأخضر . ولن أرى ثانية تلك الفتاة بشعرها الأسود وفستانها الاصفر تقف بجانب دراجتها ، لن أرى ثانية كل هذه الأشياء التى أراها الآن من هذا القطار السريع .

كان الأشقر قد ذهب لينام ، يستند على غير الحليق ويشخران فى توافق ، أنغامه الخفيفة تتناقض مع تلك الزمجرة الصاخبة الخشنة لزميله . كان الممر فارغا ، وبين حين وآخر ، كان شخص ما يذهب إلى المرحاض ، قال له رجل «هناك مقاعد شاغرة فى الداخل أيها الشاب» لكنه يشعر بسعادة أكبر فى الممر . وبدا وحيدا تماماً وصديقاه نائمان . كانت فكرة جيدة إغلاق الباب بالسلك .

كل ما يتركه *القطار* وراءه ، *أتركه بدورى ورائى إلى الأبد* . لا شىء مما أمر به سأراه ثانية . هذا الجزء من السماء الملبد بالسحب الرمادية يذهب إلى الأبد . هذه الذبابة الوليدة التى طارت لتوها من النافذة فى اتجاه «راديبول» ، ستظل هنــــاك تحت الســماء الرمادية ، ولن تأتــى معى إلى ذلك المكــان بين «لفـوف» و «تشيرنوفتسى» ، ستطير إلى مطبخ تفوح منه رائحة البطاطس المسلوقة ورائحة خل رخيص حادة ، حيث يصنعون سلاطة البطاطس ، لِبهجة العائدين فى إجازة الأسابيع الثلاثة . لا شىء من ذلك سأراه ثانية .

واستدار القطار فى انحناءة كبيرة ، وأسرع فى اتجاه «دريسدن» . وهناك غادره كثير من الجنود ، بينما رصيف المحطة ممتلىء بآخرين ، وجاءت نافذته أمام تجمع من العسكر يقف أمامهم ضابط بدين أحمر الوجه برتبة مقدم ، كان الجميع يرتدون بزات جديدة ، وبدت بدلة الضابط مناسبة لشخص مرشح للموت ، حتى الاوسمة على صدره بدت جديدة وزائفة بشكل غريب . جذب الضابط مقبض الباب ، وخبط عليه صائحا بأندريا : افتح الباب .

صاح أندريا بدوره : الباب «مسمكر» لا يمكن فتحه .

– لا تصرخ فى وجهى .. افتح الباب .. افتحه حالا .

أطبق أندريا شفتيه ، ونظر إلى الضابط عابســـا ، وفكر : سأموت قريبا وهو يصرخ فى وجهى . تخطى الضابط ببصره ، فرأى الجنود وراءه يبتسمون ، لاحظ أن وجوههم كبيــــرة فى السن ، شاحبة ومتفهمــــة لما هم فيه ، وكذلك بدت أوسمتهم قديمة وممزقة ، الضابط وحده فقط ، بدا جديدا من الــرأس إلى القدم ، حتى وجهه كان لامعا ، والآن أصبح خداه أحمرين واحتقنت عيناه قليلا بالدم .

خفض صوته وقال فى لهجة تهديد واضحة : افتح الباب .

لم يتمالك اندريا نفسه من الضحك .

وبدا أن غضب الضابط يتقجر من ازراره اللامعة ، صاح :

– أنظر نحوى حين أتحدث اليك .

لكن أندريا لم يره ، كان يفكر : سأموت قريبا .. فوداعا لكل هؤلاء الجند .. وداعا للغبار ودخان القطار ورائحة هذه البدلة الحيوانية التى تلوح أمامى .

وزأر الضابط : سأجعلهم يعتقلونك .. سأبلغ عنك الشرطة العسكرية .. ولحسن الحظ ، استيقظ الجندى الاشقر ، واتجه إلى النافذة وهو نصف نائم ، وجذب الانتباه بقوله «آسف أن أقول لك ياسيدى أن الباب قد أغلقته هيئة السكة الحديد لأن به خللا وقد يتسبب فى حادثة إذا استخدم» .

تكلم بسرعة واحترام كما لو كان يتلو تعليمات ، وبدا كأنه ساعة تعلن الثانية عشرة .

نفث الضابط بغضب ، وصاح بأندريا : لماذا لم تقل ذلك ؟

قال الأشقر : آسف يا سيدى أن أخبرك بأن زميلى أطرش .. أصم تماما .. جرح فى رأسه تسبب له بذلك .

ضحك الجنود ، وازرق لون الضابط ، ثم تحرك متبوعا برجاله ليبحث عن أمكنة فى عربة أخرى .

وقال الأشقر وراءه : غبى .. إبن عاهرة .

نظر أندريا إلى الجمهور المنطلق على الرصيف ، وفكر : يمكننى أن أنزل هنا ، وأذهب إلى أى مكان . أسير وأسير حتى يمسكوا بى ويوقفونى أمام حائط ، وبتلك الطريقة لن أموت بين لفوف وتشيرنوفتسى ، لكنى سأقتل رميا بالرصاص فى معسكر اعتقال أو فى جحر فى ساكسونيا .

لكننى أقف هنا ، فى نافذة كأنى صنعت من الرصاص ، لا أستطيع الحركة

كأنى جماد ، أنتمى لهذا القطار ، وهذا القطار ينتمى لى ، وعليه أن يحملنى إلى مصيرى المحتوم ، والغريب أننى لا أشعر بالرغبة فى مغادرته والذهاب فى نزهة تحت تلك الاشجار المبهجة . أتوق إلى بولندا بمناظرها الوحشية الغامضة ، أتوق إليها كما يتوق العاشق لمحبوبته . لماذا لا يتحرك القطار؟ ماذا ننتظر هنا ؟ لماذا علينا أن نمكث كل هذا الوقت فى هذا المكان الجميل ؟ لماذا لا ينطق مكبر الصوت؟ قلة الصبر تملؤنى لكنى لست خائفا ، وهذا شىء مضحك . لست خائفا لكنى ممتلىء بقلق وحب استطلاع لا أعرف اسمه . أريد أن أعيش ولا أريد أن أموت . نظريا الحياة حلوة ورائعة لكنى لا أريد أن أنزل ، والغريب أنى أستطيع ذلك ، كل ما سأفعله هو عبور هذا الممر ، أترك هذه الحقيبة السخيفة فى أى مكان وأبتعد سائرا تحت أشجار الخريف ، لكنى أقف هنا كتمثال من رصاص . أريد أن أبقى فى هذا القطار ، أتوق إلى كآبة بولندا وتلك الوصلة المجهولة بين لفوف وتشيرنوفتسى حيث سأموت .

★★★

بعد مغادرة «دريسدن» بقليل ، استيقظ غير الحليق ، بدت بشرته شاحبة تحت شعر وجهه ، وعيناه أكثر تعاسة مما سبق . ودون أن يتكلم ، فتح علبة من اللحم المحفوظ ، تناثرت وهو يفردها بشوكته ، وتناولها مع الخبز . كانت يداه قذرتين ، وظلت فتافيت اللحم تتساقط على الأرض حيث سينام ثانية تلك الليلة . كانت الأرضية مغطاة بأعقاب السجائر وكمية من القـذارة التى تتجمع عادة حول الجنود. وبدأ الأشقر يأكل أيضا ، ووقف أندريا فى النافذة ينظر إلى أشعة الشمس المعتدلة ، لكن لا يرى شيئا . منظر الحدائق الجميلة المبهجة حول «دريسدن» ملأت ذهنه بأفكار مضطربة متنافرة . كان ينتظر بفروغ صبر انتهاء غير الحليق من طعامه ليطلب منه خريطته . ليس لديه أية فكرة عن المنطقة التى

سيموت فيها ، يستطيع أن يكون فكرة ما عن نيكوبول أو لفوف أو برزميسل أو أوديسا أو نيكولاييف .. لكن تشيرنوفتسى كانت مجرد اسم ، تجعله يفكر باليهود والبصل ، بالشوارع الضيقة المظلمة ومنازل مسطحة الأسقف ، أو بالشوارع الواسعة على جانبيها آثار من بنايات الحكومة النمساوية القديمة وواجهات منهارة لمكاتب رائعة محاطة بالحدائق التى أضحت متوحشة ، تستخدم الآن ربما كمستشفيات أو محطات لنقل الجرحى . ويمكن أن يتخيل أيضا جادات تحدها أشجار قصيرة حتى لتبدو المنازل ذات الاسقف المسطحة كأنها معلقة على قمم الاشجار . ذلك ما قد تبدو عليه تشيرنوفتسى ، لكن ليس لديه أية فكرة عما يمكن توقعه بينها وبين لفوف . ربما كانت جاليسيا ، لفوف عاصمة جاليسيا ، وفى مساحة ما هناك مكان يسمى فولينيا . كل هذه الاسماء معتمة ومبهمة ، تنبعث منها رائحة المذابح وعزب كبيرة موحشة فيها نساء مملات ، يحلمن بالزنا بعدما قرفن من أزواجهن نوى الرقاب المقززة كرقاب الخنازير .

جاليسيا كلمة مبهمة مخيفة ولكنها ، مع ذلك ، جميلة ، تحتوى على صورة سكين حادة النصل . لفوف مدينة حلوة ، يمكن للمرء أن يكون فكرة عنها ، كل هذه المدن جميلة وغامضة وجيدة البناء ، ماضيها دموى ، وأحياؤها متوحشة ، هادئة ومتوحشة .

حين أنهى غير الحليق طعامه ، رمى العلبة الفارغة من النافذة ، ووضع بقية الرغيف الذى كان يقضم منه فى حقيبته ، وبدأ يدخن . كان وجهه حزينا ويعتريه الندم ، كما لو أنه كان خجلا من لعبة الورق المجنونة وكل ذلك الشرب . قام ووقف بجانب أندريا فى النافذة ، وشعر أندريا أنه يرغب فى الحديث .

قال : أنظر . هناك مصنع . مصنع كراسى .

قال أندريا «نعم» وهو لا يرى شيئا ولا يريد أن يرى سوى الخريطة .

تمالك نفسه وقال : هل بإمكانك إعارتي الخريطة ؟

– أية خريطة ؟

شعر أندريا بخوف مفاجىء ، وأدرك أن وجهه قد شحب ، ماذا لو كان غير الحليق لا يمتلك خريطة .

قال متلعثما : خريطة المنطقة .

– آه ... تلك ..

وانحنى يتحسس جيبه ، وأخرج خريطة مطوية ناولها لأندريا ، ووقف بجانبه يتطلع إليها . رائحة تنفسه كانت تحمل رائحة اللحم المعلب ، مختلطة برائحة مزعجة لخمر غير مهضوم ، ممزوجة بروائح من العرق والقذارة .

كان أندريا منفعلا ، فلم يستطع أن يحدد شيئا على الخريطة ، حتى رأى إصبع غير الحليق – إصبعا سمينا أحمر وسخا لكنه قوى – يتتبع خطا على الورقة ، مشيرا إلى اسم .

قال غير الحليق : إني ذاهب إلى هناك .

وقرأ أندريا الاسم : كولوميا ، وقرب بصره من الخريطة فرأى لدهشته أن هذا المكان ليس بعيدا عن «لفوف» . سار بإصبعه راجعا على الخط ، وقرأ لفوف ، ستانسلاف ، كولوميا ، تشيرنوفتسي ، هذه الاسماء لا توقظ أي صدى في تلك المنطقة الحساسة المتيقظة في وعيه ، حيث يوجد شيء ما كإبرة البوصلة يهتز ويتذبذب ولا يقف ساكنا أبدا . هل سيصل إلى كولوميا ؟ لا توجد إجابة مؤكدة ، الابرة القلقة تقفز دوما بغرابة . ستانسلاف ؟ تذبذبت الابرة ثانية . فكر فجأة : نيكوبول ؟ لكن الخط كان ميتا .

قال غير الحليق : هناك ترابط وحدتي . ورش التصليح .. محظوظ أنا .. ألست كذلك ؟

يستطيع المرء أن يخمن من نغمة صوته أنه يود القول : لا يمكن أن يكون الأمر اسوأ من ذلك .

فكر أندريا : أمر غريب ، لدى فكرة أن هناك سهولا فى ذلك المكان .. وتوقعت أن أرى رقعة خضراء مرقطة بنقط سوداء تشير إلى المدن ، ولكنى لا أرى على الخريطة سوى منطقة صفراء فاتحة . ومرت بذهنه فجأة عبارة «متاهات جبال الكاربات» ، وفى لحظة رأى مدرسته بممراتها ، وتمثال شيشرون النصفى ، والمبنى الضيق المحشور بين منزلين تتطلع من نوافذهما نساء بحمّالات الصدور ، وحامل مشروب الكاكاو فى مسكن المتعهد أسفل المبنى ، ومخزن الغلال الكبير الفارغ الذى اعتادوا أن يدخنوا فيه السجائر أثناء الاجازة ، تلك هى متاهات جبال الكاربات بالفعل .

حرك غير الحليق إصبعه إلى الجنوب الشرقى وقال : كيرسون .. كنا هناك مؤخرا .. لكن خطوطنا تراجعت الآن كثيرا .. ربما إلى لفوف فى جبال الكاربات الهنغارية . تحطمت الخطوط فى «نيكوبول» .. ألم تسمع البلاغ الرسمى ؟ كان الرجال يخوضون فى الوحل متراجعين عبر المستنقعات .. لابد أنه كان جحيما . توقفت كل المواصلات ، وحين تغرز العربات واحدة وراء الأخرى فى الطين فكل ما وراءها ضائع ، لا يستطيعون التقدم أو التراجع ولابد من نسف كل شيء ، وعلى الجنود أن يخوضوا على الأقدام .. وربما الجنرالات أيضا .. آمل ذلك على كل حال ، لكنى أفترض أنهم استخدموا الطائرات .. كان من الواجب أن يسيروا على الأقدام مثل جنود الفوهرر المحبوبين .. هل أنت من المشاة ؟

قال : نعم ، لكنه لم يفهم الكثير مما قاله الآخر ، كانت نظرته مثبتة ، برقة تقريبا ، على ذلك الجزء الاصفر الفاتح من الخريطة ، بنقاطه الأربع السوداء ،

نقطة كبيرة تعبر عن «لفوف» ، وواحدة أصغر تشير إلى «تشيرنوفتسى» ، ونقطتين صغيرتين جدا «لكولوميا» و «ستانسلاف» .

ودون أن ينظر إلى غير الحليق ، سأل بصوت أجش :

– هل تعطينى الخريطة ؟ أتعطينيها لأحتفظ بها ؟

لم يستطع أن يتحمل البعد عنها ، وبدأ يرتعش من فكرة أن يرفض الآخر . هناك الكثيرون تصبح بعض الاشياء التى يمتلكونها ثمينة لمجرد أن شخصا آخر يرغب فيها ، ربما شىء يكونون على وشك التخلص منه برميه أو بيعه ، لكن حين يريده شخص آخر ليمتلكه أو يستخدمه ، يصبح ثمينا جدا ، كثيرون هم اولئك ، لكن غير الحليق لم يكن منهم .

قال ، دهشا : بالطبع يمكنك أن تأخذها ، فليس لها أية قيمة ، فهى تساوى خمسة ماركات وهى جديدة .. فما بالك وهى قديمة ؟

إلى أين أنت ذاهب ؟

قال أندريا : نيكوبول .

وأدرك مرة أخرى أن الاسم معلق فى فراغ مفزع ، وشعر بأنه يكذب على غير الحليق ، ولم يجرؤ على النظر فى وجهه .

قال الآخر : قبل أن تصل إلى هناك .. لن تكون نيكوبول فى أيدينا .. قد تصل إلى «كيشينيف» وليس أبعد .

قال أندريا : أتعتقد ذلك ؟

كانت «كيشينيف» اسما آخر لا يعنى له شيئا .

قال غير الحليق ضاحكا «بالتأكيد» وأضاف «لنرى إلى أى مدى ستمضى إلى هدفك . غدا صباحا سنكون فى بريسلاف ، وغدا مساء وهو الثلاثاء سنصل إلى برزميسل ، وفى مساء الجمعة سنكون فى لفوف ، ومساء السبت يجب أن أكون فى

كولوميا ، وستبقى لك عدة أيام لو جعلتها أسبوعا فلن تكون هناك نيكوبول لتذهب إليها».

وفكر أندريا «السبت . خلاصة الأمر وذلك يعطينى شعورا بالأمان . فسأكون حيا يوم السبت . لم يكن قد جرؤ على التفكير بتاريخ محدد ، وفهم الآن لماذا لا يستجيب قلبه حين يفكر بالشهور أو السنين . فهى تخمينات بعيدة جدا عن الامتداد الزمنى الذى خصص له ، مثـــل اطلاق الرصاص فى مكان خال حيث لا صدى ، أو فى أرض لم يعد فيا بشر . فالنهاية قريبة ، قريبة بشكل موحش ، السبت ، وأيقظت الكلمة فى كيانه ذبذبات لذيذة مؤلمة . سيكون حيا يوم السبت ، طوال اليــوم ، وذلك يعنى ثلاثة أيام أخر . سينزل غير الحليق فى كولوميا مساء السبت ، ولن أصل إلى «تشيرنوفتسى» حتى وقت متأخر ، لكن الأمر لن يحدث فيها ، بل بينها وبين «لفوف» ، إذن لن يكون ذلك يوم السبت ، هناك شىء خطأ ، وفكر فجأة فى الأحد ، وبعثت فيه الكلمة شعوراً حزيناً رقيقاً غير مؤكد .

قال لنفسه : أعرف . سأموت صباح الأحد بين «لفوف» و «تشيرنوفتسى» .

ولأول مرة ، ينظر الآن عن قرب ، وبإمعان لغير الحليق . صدمه منظر وجهه ، كان فى بياض الموت تحت شعر لحيته ، وكانت عيناه مليئتين بالخوف مع أنه ذاهب إلى ورشة إصلاح وليس إلى الجبهة ، فلماذا كل هذا الحزن والخوف ؟ ليس ذلك من أثر الشراب . وحين نظر فى عينيه شعر بصدمة أكبر ، كأنه ينظر إلى جثة تفغر فاها يأسا . لم يكن ذلك مجرد خوف أو خواء ، بل هناك هامة هائمة تأكل روحه ، وفهم أندريا لماذا كان يواصل الشرب ، كان يحاول اسقاط الروح الشريرة فى اللجة .

قال غير الحليق فجأة : الشىء المضحك أنى مازلت فى إجازة ..

وتصريحى سارى المفعول حتى الأربعاء القادم .. فلدى أسبوع كامل .. لكنى عدت بسرعة .. فزوجتى .. زوجتى ...

الفستان الأصفر المستندة على دراجتها ، ربما مازالت تقف حيث رآها أندريا .

قال غير الحليق ، متكلما بسرعة ، وبلهجة رسمية تقريبا ، كما لو أنه يريد كرّ بكرة الصوف بأسرع ما يمكنه «نعم .. غادرت البيت .. غادرته ببساطة . فى طريقى إلى البيت لبست بنطال العمل .. أردت الاحتفاظ ببنطالى الاسود المكوىّ جيدا لإجازتى . كنت أتطلع لأكون مع زوجتى .. لا أستطيع أن أقول لك كم .. لا عدل فى ذلك .. لا عدل» .

ورفع صوته «ما أعنيه شيء مختلف تماما .. المرء يتطلع لأن يكون فى بيته مع زوجته .. أتفهم ذلك يارجل ؟ لا علاقة لذلك بما يفعله المرء مع النساء الأخريات .. فهو ينسى تلك العلاقات بعد انتهائها .. ثم كان هناك ذلك الروسى .. مستلقيا على كنبتى .. حيوان يمدد ساقيه .. ويدخن . نحن الالمان لا نستطيع أن نستلقى بذلك الشكل وندخن بكسل ، الالمانى لا يفعل ذلك مهما كان الموقع الذى هو فيه . لقد عرفت أنه روسى من أنفه .. فأنت تستطيع معرفتهم من أنوفهم» .

غرق غير الحليق فى الصمت ثانية ، ونظر إلى الريف الهادىء الذى تستلقى عليه أشعة الشمس بلمعان ذهبى ، بينما الأشقر مازال جالسا فى مكانه ، يأكل خبزاً أبيض بالزبد ، ويشرب قهوة من تريموس ، كان يأكل بتأنق وبطريقة منظمة . فكر أندريا بأن عليه أن يتلو مزيدا من الصلوات ، فمنذ غادر البيت لم يتل شيئا تقريبا ، وما كاد يبدأ فى صلاته ، حتى بدأ غير الحليق كلامه ثانية :

«نعم يارجل .. رحلت ، أخذت القطار التالى وحملت معى كل متاعى ، وكل مخزون الخمر وعلب اللحم وكل نقودى وهى كثيرة ، فقد وفرت الكثير من أجلها .

لو كان معى بعض الخمر الآن ؟ فقد نفد كل شيء لدى الناس في هذه المناطق .. وليست لديهم سوق سوداء هنا » .. قال أندريا : معى بعض الخمر .. أتريده ؟

- أتسألنى يارجل !

ابتسم أندريا وقال «سأعطيك الخمر مقابل الخريطة .. ماشى؟» .

احتضنه غير الحليق ، وارتسمت السعادة على محياه .

انحنى أندريا ، وبحث في حقيبته حتى وجد زجاجة الخمر ، وتردد لحظات ، أيعطيه الزجاجتين ؟ أم ينتظر حتى يزول أثر الزجاجة الأولى ويحتاج خمراً مرة أخرى ؟

وقرر أن يعطيهما له ، سحبهما من حقيبته وناولهما له قائلا :

- خذهما .. لا أريد شيئا من الخمر .

وفكّر «سأموت قريبا .. وهذه الـ «قريبـــاً» لم تعد غائمة كما سبق . فقد ناوش الفكرة وتشممها ، وهو يعرف أنه سيموت ليلة الأحد بين لفوف وتشيرنوفتسى ، فى مكان ما فى جاليسيا ، ربما فى شرقها قرب بيكوفينا وفولينيا ، تبدو الاسماء كمشروبات مجهولة . بيكوفينيا تبدو كنوع من براندى الخوخ ، وفولينيا كأنها بيرة ثقيلة ، لقد شرب مرة مثلها فى بودابست ، فهى أشبه بالحساء منها بالبيرة» .

نظر ثانية خلال الباب الزجاجي ، فرأى غير الحليق يمسك زجاجة من عنقها ويدعو الأشقر للشرب ، فيرفع الأخير يده بإيماءة رفض .

وعاد ينظر من النافذة ، لم يكن هناك ما يمكن مشاهدته ، وراحت عيناه تنظران إلى الأفق البولندى البعيد حيث يمتد سهل لانهائى، ذلك المنظر المقذوف بعيدا الذى ستراه عيناه حين تحين الساعة.

كان سعيدا أنه ليس وحده ، لا أحد يستطيع تحمل هذا القلق دون صحبة ، وهو سعيد لأنه قبل تحدى لعب الورق وتعرف على الجنديين.

لقد أعجب بغير الحليق ، وشعر بأن الأشقر ليس منحلا كما يبدو عليه، وحتى لو كان منحلا ، فحاله كحال كل البشر .

ليس من الخير للمرء أن يكون وحيدا ، ولايستطيع أن يتحمل الوحدة مع الاخرين الذين يتكومون بلا نظام فى الممر ، قطيع من الثرثارين ليس لديهم ما يتحدثون عنه سوى الاجازات والترقية وتقلد الأوسمة والطعام والتبغ والنساء ، النساء اللواتى ألقين أنفسهن فى أحضانهم.

وفكر : لن تبكى فتاة من أجله ، وذلك غريب ومحزن . لو هناك امرأة ما فى مكان ما تفكر فيه ؟ حتى لو أتعسها ذلك ، فالله يقف بجانب التعيس . فالحياة شقاء ، والالم هوالحياة . سيكون شيئا ما بالنسبة له لو أن فتاة تحلم به وتبكيه حين يموت، سيجرها وراءه وتعوم خلفه بدموعها إلى العالم الآخر ، ولن تنتظرنى وحدها فى الأبدية ، لاتوجد فتاة كهذه ، وذلك أمر غريب ، ولافتاة من اللواتى قبلتهن ! أمن المحتمل أن تلك الفتاة مازالت تفكر بى ، لا . ليس ذلك ممكنا ، لقد التقت عيوننا وامتزجت لفترة عشر ثانية وربما أقل ، ومع ذلك لا أستطيع نسيان عينيها .

ثلاث سنوات ونصف ولا أستطيع منع نفسى من التفكير فيها ، ولا أقدر على نسيانها ، فقط لمدة عشر ثانية أو أقل ، ولا أعرف أى شىء عنها حتى ولا اسمها ، كل ما أعرفه هو عيناها الوديعتان الحزينتان بلون الرمل بعد المطر . عينان حزينتان ، ومليئتان بالشهوة وبكل ما فى النساء . عينان لم أنسهما قط ولا ليوم واحد طوال ثلاث سنوات ونصف . لا أعرف اسمها أو حتى أين تعيش . وطوال هذه المدة لم أعرف إذا كانت قصيرة أو طويلة ، لم أر حتى يديها، لو رأيتهما على الأقل ! رأيت وجهها فقط، وحتى ذلك لم أره بوضوح كبير ، لها شعر أسود أو

بنى ، ووجه نحيف طويل ، ليس جميلا ولا ناعما . لكن العينين الخزراوين ، بلون الرمل بعد المطر ، المليئتين بالحزن ، تنتميان لي وحدى برغم أنهما لم تقعا على وجهى إلا لجزء من الثانية ، مع ابتسامة قصيرة . كان هناك حائط ، ووراءه منزل ، وعلى الحائط ارتكز كوعاها وبينهما وجهها . كان ذلك فى قرية فرنسية قرب «إميان» تحت سماء صيف متوهجة، احترق أزرقها من الحرارة . كان أمامى طريق يصعد تلة بين صفين من أشجار قصيرة، وحائط على يمينى وخلفى بلدة «إميان» تغلى كمرجل ، وسحابة من الدخان تغطيها ، وزئير المعركة العميق مثل عاصفة رعدية غاضبة.

وضباط منفعلين ، على يسارى ، يركبون دراجات نارية، ودبابات بجنازير عريضة تتحرك ببطء وتغطينا بالغبار . وكنا نسمع صوت اطلاق البنادق فى مكان ما فى المقدمة، وفجأة وأنا أنظر إلى الطريق الذى يصعد التلة دخت، وبدت الطريق كأنها تتأرجح ، وانهار الحائط الذى يصعد بجنون جانب المنحدر على اليمين ، وسقطت فوقه كما لو أننى جزء منه ، وكأن العالم كله قد انقلب ، وكل ما استطعت رؤيته طائرة تسقط، ليس من السماء إلى الارض ، بل من الارض إلى السماء، أدركت بعد ذلك أن السماء كانت الارض، وأننى كنت استلقى على سطح سماء محترقة زرقاء باهتة لاترحم ، وشخص ما يلقى بعض البراندى على وجهى ويدلكه ، ودلق بعضا منه فى حلقى ، فتحت عينى ورأيت الحائط فوقى ، حائطا من الطوب المخرم ، يستريح عليه كوعان بينهما عينان رأيتهما لعشر الثانية ، ثم صاح الضابط «إلى الامام» ورفعنى شخص ما من ياقتى ووضعنى على الطريق ثانية . وحملنى الطريق إلى الامام ، ولم أستطع حتى الالتفات .

يا للعار ! فلم أتمكن من معرفة الجبهة والصدر والفم واليدين التى تنتمى لها

تلكما العينان ! أكثير على أن آمل بمعرفة قلبها الذى يرى من خلالهما ؟ ، قلب عذراء بالطبع ، آه لو استطعت تقبيل فمها قبل أن ينقلونى إلى القرية التالية بعدما أصيبت ساقى بطلق نارى .

كان الوقت صيفا ، والحقول صفراء بالقمح الناضج، ومع ذلك كان الحصاد ضعيفا، فقد كانت سنابل القمح، فى أماكن كثيرة ، محترقة بفعل أشعة الشمس الحامية. وليس أشد كرها على نفسى من أن أموت كبطل، فى حقل قمح. وذكرتنى هذه الفكرة بقصيدة ، ليس لدى رغبة فى أن أموت كشخصية فى قصيدة ، أو كبطل آخر يوضع على «بوستر» من أجل هذه الحرب القذرة، ومع ذلك فالفكرة تليق بقصيدة وطنية : هناك استلقى فى حقل فى بلد أجنبى ، جريحا أنزف ، لاعنا القدر الذى حكم على أن أموت على بعد خمس دقائق من عينيها .

ولكن ، الحقيقة أن عظمة الساق فقط هى التى تهشمت ، كنت بطلا ، جرح على الارض الفرنسية ، وراء «إميان» ، ليس بعيدا عن الحائط الذى يصعد التلة بجنون ، وعلى بعد خمس دقائق من وجه لن أراه أبدا، مثله مثل العينين.

سمح لى ، لجزء من الثانية ، أن أرى محبوبتى الوحيدة ، التى ربما تكون شبحا ، والآن علىَّ أن أموت هناك حيث يحد الافق البولندى الواسع ، الريف.

ألم أعد هاتين العينين أنْ أصلى لأجلهما كل يوم ؟ وها هو اليوم قارب نهايته، بالأمس ، فكرت فيها عرضا ، ولمرة واحدة، اثناء لعب الورق ، فى تلك التى لم أعرف اسمها ولم أقبل فاها قط .

شعر أندريا بالجوع فجأة . ووجد الأمر مفجعا أن يشعر بالجوع ، الآن، مساء الخميس ، وهو سيموت يوم الأحد ، ومع ذلك كان جوعانا ، بل يتضور جوعا ،

وينتابه الصداع أيضا. جلس بجانب غير الحليق ، الذي وسع له ببشاشة ، كان الصمت يخيم على الثلاثة، حتى الأشقر كان يمرر «هارمونيكا» على شفتيه ، عازفا على جانبها الآخر غير المخرم ، ويستطيع المرء من رؤية تعابير وجهه أن يدرك أنه يحلم بالنغمات التي لاتصدر صوتا. وكان غير الحليق يشرب بهدوء على فترات منتظمة وحسب خطة معينة، وبدأت عيناه ترفان - أخرج أندريا علبة السندويتشات التي نشفت، لكنه كان جائعا ، فبدأ يأكل ، كان طعمها لذيذا . أكل ستة منها على التتابع ، وشرب قهوة من تريموس الأشقر، أكل بشهية ، واعتدل مزاجه ، وارتجف بشعور من حسن الحال .

كان سعيدا أن الآخرين صامتان ، وأن صوت القطار الرتيب يبعث بهما إلى النوم، وفكر أنه لابد أن يصلي ، يتلو لنفسه كل الصلوات التي عرفها عن ظهر قلب ، ويرتجل صلوات أخرى أيضا .

بدأ «بشهادة الايمان» ، ثم «أبانا الذي في السموات» ، فالسلام عليك يا مريم ، وصلاة «من الأعماق» ، وتلا صلاتين أخريين ، ثم عاد يكررها ثانية، بحيث غطّى كل شيء بشكل رائع . ثم تلا صلوات الجمعة الحزينة التي تشمل جميع البشر بمن فيهم اليهود ، ثم كرر الصلاة الربانية ، فصلاة خاصة.

وبدا أن الجو رائع للصلاة ، فبجانبه يجلس صديقاه صامتين ، أحدهما يعزف على الجانب الخطأ من الهارمونيكا، والآخر يغرق نفسه في السكر بتصميم .

انتشر الظلام في الخارج ، فتلا صلوات طويلة لعيني الحبيبة، اكثر من كل الصلوات الاخرى ، وصلى من أجل غير الحليق وللأشقر أيضا، وللرجل الذي قال في يوم سابق «من ناحية عملية فقد كسبنا الحرب بالفعل» ، صلّى ، خاصة ، لذلك

الرجل .

قال غير الحليق فجأة «بريسلاو » كان مخمورا ، وصوته عميقا بشكل غريب، مثل صوت رنين المعدن.

– بريسلاو . سنصل قريبا إلى بريسلاو.

وتلا أندريا مطلع قصيدة لنفسه :

كان هناك نحاس

يصنع الاجراس

في بريسلاو

وتأسف أنه لايحفظ كل القصيدة عن ظهر قلب . سأموت ليلة الأحد أو صباحه عند خط الافق البولندى الطويل الطويل ..

وردد لنفسه القصيدة ، وفكر ثانية بالعينين الحزينتين، .. وراح في النوم وابتسامة على شفتيه .

★★★

الاستيقاظ مزعج دائما . في الليلة السابقة داس أحدهم على إصبعه ، وهذه الليلة هاجمه حلم مرعب . كان يجلس في مكان ما في سهل رطب بارد ، وليس له ساقان ، فقط جذع ، وفوق السهل كانت السماء سوداء وتنخفض هابطة إلى الارض طوال الوقت. تقترب وتقترب ولايستطيع الهرب أو الصراخ ، فلا أحد هناك ، وطلب النجدة لامعنى له . أوهنه الشعور بالعجز ، لكنه لايستطيع أن يدع السماء تطبق عليه دون محاولة لانقاذ نفسه . لم يكن متأكدا إذا كان السهل مغطى بالعشب، العشب المبلل ، أو مجرد أرض، أو حتى طين . لايستطيع الحركة، ولايفكر في محاولة الزحف إلى الأمام على يديه ، أو القفز كطائر أعرج، ثم إلى أين سيذهب؟ فخط الافق يحيطه بدائرة لانهائية ، والسماء تقع . وفجأة سقط على

رأسه شيء بارد رطب ، وللحظة متناهية في الصغر ظن أن السماء السوداء ، ليست إلا مطرا سيجرفه بطوفانه، أراد أن يصرخ ، لكنه استيقظ ليجد غير الحليق واقفا فوقه يرفع زجاجة الخمر إلي شفتيه، وأدرك أن قطرة من الخمر سقطت وانتشرت علي جبينه .

بدا كل شيء كما كان ، وفكر بصباح الأحد ، اليوم الجمعة، بقي يومان ، وكل شيء يبدو كما كان . الأشقر نائم ، وغير الحليق يشرب الخمر بجرعات هوجاء ، والجو بارد في القطار . كان هناك تيار بارد يتسرب من تحت الباب . كل صلواته قد ذهبت عبثا وهو نائم ، حتى ذكرى تلكما العينين لم تعد تبعث فيه تلك البهجة المؤلمة ، ولكن شعورا بالأسف والوحدة .

كل شيء كما كان ، انطفـــأ بريق الاشياء وبدت الحيـــاة بلا هدف . كان الأمر ســـيبدو رائعا لو اختفت «قريبا» هذه ، لكنها مازالت هناك، منتظـــرة لتنقض ، حـــالما تلفظ بالكلمـــة تشـــبثت به كقناع . في اليومين الســـابقين كانت قريبة منه ، غير منفصـــلة عنه ، كقلبه وروحه، وهذا الصبـــاح كانت قوية وواثقـــة .

لاحظ غير الحليق أن أندريا قد استيقظ . كان يقف فوقه فبدا شكله مزعجا في ضوء الصباح الشاحب ، كان قصيرا ومنحنيا كما لو أنه سيقفز ، يرفع الزجاجة إلى فمه بعينين تبرقان ، والسائل يقرقر في عنق الزجاجة بغرابة .

سأل أندريا بصوت أجش لكنه رقيق «أين نحن؟»

وشعر بالخوف في هواء الفجر المعتم البارد .

قال غير الحليق «لسنا بعيدين عن برزميسل» أتشرب ؟

تناول الزجاجة وشرب ، كانت الخمر جيدة ، وسرت كالنار في جسده ، وادفأت دمه كما تغلي النار «كنكة» ماء عليها . وأعاد له الزجاجة بعدما شعر بالدفء

والراحة.

قال غير الحليق بخشونة : اشرب .. اشرب .. لدى كمية طازجة مخزنة فى كراكوف

– اشكرك .

فجلس بجانبه ، وانتاب أندريا شعور طيب لأن له رفيقا مستيقظا ، وهو مكتئب ، وكل الآخرين نيام. كان شخير الاشقر اللطيف يتصاعد من ركنه كالصفير ، وهواء المر يبعث على الغثيان ، هواء فاسد ، ملوث بالدخان ورائحة العرق والانفاس .

فجأة ، جاء الحدس لأندريا أنهم فى بولندا . كاد قلبه يتوقف، وتتجمد عروقه مانعة الدم من السريان . لن يرى ألمانيا ثانية ، ضاعت منه، عبرها القطار وهو نائم . هناك خط فى مكان ما ، خط وهمى ، يقطع حقلا ، أو يخترق قرية يشكل الحدود ، قطعها القطار بدم بارد ، ولم يعد فى المانيا . لم يوقظه أحد ليمنحه فرصة النظر فى الظلام إلى قطعة من سماء ليل ألمانيا ، لا أحد فى القطار يعرف أنه لن يرى بلده ثانية ، لا أحد يعلم أنه سيموت ، ولن يرى «الراين» ثانية ، لقد حمله القطار ، ببساطة ، بعيدا إلى «برزميسل» التى تقع فى بولندا ، بولندا المرتدية الحداد ، البعيدة عن الراين ، لن يشم ثانية رائحة المياه الجميلة اللاذعة ، والاعشاب التى تسكن ضفاف النهر ، ولن يرى صفوف الاشجار على طول الضفتين ، والحدائق حول البيوت ، والسفن المرحة المنظمة المهندمة، والجسور الجميلة التى تثب فوق الماء بأناقة صارمة مثل وحوش رشيقة طويلة.

قال بصوت خشن : اعطنى الزجاجة !

وأخذ جرعة طويلة كبيرة من السائل النارى ليحرق تعاسة قلبه . وبدأ يدخن ،

متمنيا أن يتحدث إليه غير الحليق . لكن عليه أن يصلي أولا . الصلاة لن تريحه ولذلك يصلي . تلا صلوات الليلة السابقة نفسها ، وابتدأ هذه المرة بالصلاة للعينين حتى لاينساهما ، كان دائما على وعي بهما، لكن ليس بالوضوح نفسه ، فهما ، أحيانا ، تختفيان تحت السطح لشهور ، ويكون حضورهما مثل حضور شفتيه أو قدميه ، لايحس بها إلا إذا آلمته ، وأحيانا ، بعد اختفائهما لشهور تعودان للظهور في فترات غير منتظمة مثل ألم حارق ، كما حدث بالامس ، وفي مثل هذه الايام يضعهما في صلواته المسائية ، اليوم عليه أن يضعهما في صلاته الصباحية .

سأل : هل مازالت كولوميا تابعة لجاليسيا ؟

قال غير الحليق : لا أعرف .. أظن لبولندا .

جاليسيا كلمة كثعبان بأرجل دقيقة وجسد كسكين ، ثعبان بعينين لامعتين ، يزحف فوق الارض ، يحفر التربة وهو يسير ، جاليسيا اسم مظلم مملوء بالالم ، ومحبب أيضا، فتلك هي الارض التي سأموت فيها، اسم مملوء بالدم تفجره شفرة موسه . «بوكوفينيا» كلمة صلبة ثابتة ، لن أموت هناك . حين ينبلج الضوء سأرى أين تبتدىء ، لن أراها ثانية، لكني سأكون قريبا منها، وتشيرنوفتسي تقع فيها، وهي الأخرى لن أراها ثانية .

كل حدود تبعث احساسا بنهائية مرعبة . خط وينتهي الأمر . يخطو فوقه القطار كأنه يخطو فوق جثة أو جسد حي . مات الأمل . أمله في أن يذهب ذات يوم ، ثانية، إلى فرنسا ، ويجد العينين، والشفتين اللتين تنتميان لهما، والقلب والصدر – صدر امرأة . هذا الامل مات تماما ، وانقطع كلية.

وستظل العينان هما العينين إلى الابد . لن تمتلكا، بالنسبة له، جسدا

أبدا، أو ملابس أو شـــعر أو يدين . يدان آدميتان ، يدا امرأة قد تحتضنـــاه يوما.

كان دائما متعلقا بأمله ، لأنه حتى الآن شخص حي ، تنتمي إليه هاتان العينان لفتاة عذراء ، او لسيدة ، ويعتمد على تخيلهما ، الآن فقط . فلم تعد له شفتاها وفمها وقلبها ، ذلك القلب الحي تحت الجلد الناعم الذى يمكن أن يلمس نبضه بيده. لن يكون له ذلك ، لن يكون .

صباح الأحد بين لفوف وتشيرنوفتسي ، ابتعدت الآن هذه الاخيرة، وانكمشت «تقريبا» إلى مسافة ضيقة قصـــيرة ، يومان ، ربما يصل إلى «كوبونيا» ، لكن ليس أبعـــد من ذلك . لن يكون له ذلك القلب أو الفم، فقط العينـــان والروح ، روح محببة حزينة بلاجسد ، محشورة بين كوعين كساحرة على خازوق قبل أن تحرق.

أخذت الحدود الكثير من حياته ، واختفى «بول» إلى الابد ، كل ما بقى هو الذاكرة ، والأمل ، والحلم .

قال بول مرة «نحن نعيش على الأمل» ، كما يقول المرء بالضبط «نحن نعيش على السلف» ، لست متأكدا من شيء ، كل ما لدى تلك العينان ، ولا أدرى إذا كانت صلواتي خلال السنوات الثلاث والنصف الماضية قد أفادت لترسيهما على شاطيء أرجو أن أجده.

يذكر تلك الأيام فى فرنسا ، وعرجه من مستشفى «إميان» إلى التلة حيث رآها. وجد كل شيء قد تغير . لم تعد الطريق تصعد التلة كشريط ، كانت عادية تماما، والتلة تحملها فوق ظهرها ، ولم يعد الحائط يترنح ويجرى ، بل يقف راسخا، ولايزال المنزل هناك، لكنه لم يعرفه ، تعرف فقط على الحائط الطوبى المخرم ، ورأى هناك رجلا فرنسيا يدخن الغليون ، برجوازيا صغيرا ، عيناه

العاديتان تومضان بالحقد ، ولم يكن لديه ما يقوله ، عرف أن أهل المنزل ذهبوا جميعا، هربوا ، وأن الالمان نهبوا المكان على الرغم من اليافطة المثبتة على الطريق وتقول «السلب عقابه الموت» لاأثر للعينين ، والمرأة الوحيدة هناك هى زوجة الفرنسى ، لها وجه كالأرنب وترفع يدها أمام فتحة ثوبها . لاشىء يذكره بالفتاة، لا طفل ولاابنة ولاقريبة ، غرفة صغيرة فقط مليئة بالقمامة والهواء الفاسد ، والنظرة الساخرة للزوجين تراقبه فى بحثه المؤلم الفاشل .

حطم الألمان خزانة الصينى ، وحرقوا السجادة بنقر من أعقاب السجائر ، ونام الجند مع فتياتهم على الكنبة ووسخوها، وبصق أندريا باشمئزاز .

وعلم من الفرنسى كل ما حدث بعد المعركة التى غطّى فيها الدخان «إميان» ، وبعد أن تحطمت الطائرة فى حقل القمح هناك ، حيث يمكن للمرء أن يرى ذيلها مازال منغرسا فى الارض . أشار الرجل بغليونه من النافذة:

«هناك ذيل الطائرة بعلاماته الفرنسية» وبجانب الحطام قبر عليه خوذة معدنية تلمع فى ضوء الشمس . كان كل شىء حقيقيا ، حقيقيا جدا ، بما فيه رائحة اللحم المحمر فى المطبخ والنوافذ المغلقة ، وكاتدرائية «إميان» أسفل الوادى ، أحد آثار الطراز القوطى . ولا عينان.

قال الفرنسى : ربما المرأة التى تبحث عنها كانت عاهرة .

لكنه أظهر تعاطفا معه ، من الرائع أن يتعاطف شخص فرنسى عادى مع جندى ألمانى ينتمى إلى جيش انتزع منه سكاكينه وشوكه ، وسرق ساعاته ، ووسخ كنبته بآثار ممارساته الجنسية .

كان متألما لدرجة أنه وقف على عتبة البيت ساكنا ، ونظر إلى الشارع حيث أغمى عليه، لكن جرحه كان يؤلمه فلم يستدل على المكان . هز الفرنسى رأسه ،

فربما لم ير قط عينين حزينتين مثل عينى هذا الجندى الذى يستند بثقله على عصاه .

قال : ربما مجنونة .. امرأة مجنونة من المصحة هناك ..

وأشار بيده تجاه الحائط حيث تبدو أسقف حمراء تحت أشجار باسقة جميلة.

أضاف : مستشفى مجانين . كلهم جروا وقت القتال .. ومن الصعب الامساك بهم واعادتهم.

قال أندريا : شكرا .. شكرا ..

وبدأ يسـير فى اتجاه المصحة . وصعد ، فى الحر ، صعـودا طويلا قبل أن يصل إلى البوابة . كان هناك حراس بخوذ فولاذية ، علم منهم أن جميع المجانين قد نقلوا ، وأن المكان يضم جنودا جرحى ومرضى وعيادة أمراض تناسلية .

قال الحارس : عيادة ضخمة .. هل تناولت جرعة ؟

نظر أندريا إلى الحقل الواسع ، حيث ينغرس ذيل الطائرة فى الارض ، وخوذة الطيار الميت تلمع بجانبه .

قال الحارس الضجر الراغب فى الحديث : الفتيات هنا رخيصات .. يمكنك الحصول على واحدة بنصف مارك ..

ضحك وأضاف : بنصف مارك .

قال أندريا «نعم» وهو يفكر بأن فى فرنسا أربعين مليون نسمة ، وذلك كثير جدا ، لا أمل للمرء أن يجد واحدة وسط أربعين مليونا، لابد أن ينظر وينظر فى كل عينين يقابلهما.

لم تكن لديه رغبة فى السير لثلاث دقائق أخرى لزيارة المكان الذى جرح فيه ، على كل حال سيكون كل شىء مختلفا ، الطريق والحائط، ربما نسوا كيف كان

وضعهما .. فللأشياء ذاكرة مثل ذاكرة الانسان . ربما نسى الحائط أنه انقلب وهو معه ، وذيل الطائرة ما هو إلا حلم - حلم يزدهي بالالوان الفرنسية - ما فائدة الذهاب لرؤية الحقل؟ لماذا السير لثلاث دقائق أخرى ؟ كان يفكر طوال الوقت ، بألم وكراهية ، بالأغنية الوطنية التى اطاع نداءها على غير رغبة منه، لماذا يعذب الاقدام المتعبة ؟

قال غير الحليق : الآن سندخل برزميسل.

قال أندريا : أعطني الزجاجة

تناولها وشرب . مازال الجو باردا ولكن النهار ينبلج ، لحظات ويتمكن المرء من رؤية الأفق وسماء بولندا الشهيرة .

بيوت مظلمة ، وسهل مملوء بالخيالات ، وتبدو السماء كأنها ستقع فوقه ، فلاتوجد جبال تمنعها . وتساءل أندريا : هل دخلوا جاليسيا ؟

ربما هذا السهل المجدب الرمادى المملوء بالحداد والدم الذى يظهره ضوء الفجر هو جاليسيا .. شرق جاليسيا.

قال غير الحليق : لقد نمت وقتا طويلا . من السابعة مساء حتى الخامسة صباحا .

إنها الخامسة الآن .. نسير منذ وقت طويل في بولندا .. تركنا كراكوف وتارنوف وراءنا .. لم أغلق عيني .. ونحن الآن على مشارف برزميسل .

ياله من اختلاف عجيب بين برزميسل والراين . لقد نمت عشر ساعات، والآن أجوع ثانية ، وقد بقى لى ٤٨ ساعة ، عشت مثلها بالفعل مع «قريبا» هذه المعلقة فوق رأسى ، قريبا سأموت ، كان ذلك مؤكدا منذ البداية ، لكنه غير واضح ، وبالتدريج أوضحت التفاصيل الأمر ، سألقى مصيرى بعد كيلومترات قليلة من خط

السكة الحديد ، أبعد يومين عن نهايتي ، كل دورة عجل تقربني من قيامتي ، وتنهش قطعة من حياتي التعسة . هذه العجلات تهدم حياتي وتنسلها بإيقاعها الغبي . إنها تسير على الارض البولندية بالرتابة السخيفة المملة نفسها التي كانت تسير بها على شواطيء الراين، وهي العجلات ذاتها. ربما نظر بول إلى هذه العجلة التي تحت الباب ، هذه العجلة المزيتة المغطاة بالقذارة التي جاءت من باريس أو الهافر ، خلال ساعات قليلة سيجلس الناس على كراسي من أغصان الصفصاف ، تحت المظلات ، يشربون النبيذ في نسيم الخريف، ويستنشقون غبار باريس المعطر ، ويرتشفون خمر الانيسون ، ويلقون بأعقاب سجائرهم ، عرضا ، في مياه قناة جارية تحت سماء صافية ساخرة . هناك خمسة ملايين نسمة في باريس ، وكثير من الشوارع والازقة، ومنازل لاحصر لها، ولا أستطيع أن أرى العينين تطلان من إحدى النوافذ، فخمسة ملايين ، عدد كبير ، على كل حال ، ليبحث المرء عنها بينهم.

أصبح الجو اكثر إشراقا ، وبدأ بعض النائمين يتحركون ويتقلبون في نومهم، شرع غير الحليق بالحديث بسرعة شديدة، وكأنه يريد أن يقول ما عنده قبل أن يستيقظ النُوَّم تماما، أو أنه يريد أن يلقي بحمله لليل ، لأن الليل المصغية قبل أن ينبلج النهار .

قال في صوت هاديء «المفزع أني لن أراها ثانية ، أعرف ذلك ولا أدري ما ستصير إليه . ثلاثة أيام فقط منذ غادرت البيت، ترى ما الذي فعلته خلالها ؟ لا أعتقد أن الروسي مازال معها . لا . لقد صرخت كحيوان أمام ماسورة بندقية صياد . لا أحد معها . إنها تنتظر . لاتستطيع الحياة بدوني .. أنا سعيد بأني لست امرأة .. فعليها دائما أن تنتظر وتنتظر . كان صوته منخفضا ، لكنها كانت صيحة ألم فظيعة تلك التي أطلقها عند قوله «تنتظر» .

وواصل حديثه « لا تستطيع الحياة بدوني ، لا أحد معها ولا أحد سيأتي اليها. تنتظرني فقط وأنا أحبها ، لقد أصبحت الآن بريئة كفتاة صغيرة لم تفكر بالقبل ، لقد طهرتها هذه البراءة ، لا أحد في العالم يمكن أن يساعدها سواى ، وهأنذا أجلس في قطار يتجه إلى برزميسل في طريقي الى لفوف ، ولن أعبر الحدود الألمانية ثانية .. لكن لماذا لا آخذ القطار التالي وأعود اليها ؟ ذلك ما يتوقعه مني كل شخص ، ولم لا ؟ إلا أنني أخاف براءتها . أحبها بشدة وأنا ذاهب إلى موتي، وكل ما ستسمعه عني سيكون في خطاب رسمي يقول إني أبليت بلاء حسنا في المعركة ومت في سبيل بلدي

تساءل : ألا تظن أن القطار يسير ببطء لعين .

أود أن أذهب بسرعة أكبر وأكبر ، ولا أدري لماذا لا أغير القطار وأعود إليها ؟ مازال لدي الوقت ، أود أن يجري القطار بسرعة أكبر . استيقظ بعض النائمين ، يرمشون بمزاج متعكر في الضوء الشاحب الذي ينتشر على السهل .

تمتم غير الحليق في أذن أندريا « أنا خائف من الموت .. لكني خائف أكثر من العودة إليها .. لذلك أفضل الموت . ربما أكتب اليها » .. مشط المستيقظون شعورهم ، واشعلوا سجائرهم ، وتطلعوا بازدراء إلى المنظر أمامهم ، حيث تبدو حقول قاحلة وأكواخ مظلمة هنا وهناك ، بدا الريف غير مأهول ، بتلاله على البعد ، وسهوب بولندا البنية الرمادية الواسعة في كل مكان .

هدأ غير الحليق ، لم يبد عليه أثر للحياة ، لم يستطع النوم طوال الليل ، وراح الآن في سبات عميق ، بدت عيناه كمرآتين عمياوين ، وخداه أصفرين غائرين ، وشعر وجهه أصبح لحية بُنيّة محمرة ، تشبه الشعر الذي ينمو قصيرا في مقدمة رأسه .

قال صوت دمث : لا يجدى هناك سوى المدافع ٣٠٧ المضادة للدبابات .. انها أصلح من أية مدافع أخرى مضادة .. وهى سهلة الحركة .. ضحك أخر وقال بصوت يبدو متعلما «لكنها تدق الباب . ولا تخترق الدبابة» .

قال الأول : لا . ليس صحيحا .

– بل صحيح . وذلك سبب اعطائه صليب الفارس .. بينما كل ما حصلنا عليه سراويل مملوءة بالخراء .

قال صوت أخر : كان يجب أن يستمعوا إلى الفوهرر ، فلتسقط القبعات النحاسية ، كان اسم الشاب الذى اخترع المدفع ڤون كروشتين .. ياله من اسم؟ ومع ذلك فإن لديه بعد نظر أكثر من أى شخص آخر .

★★★

إن غير الحليق محظوظ ، لاستطاعته النوم وسط كل هذه الثرثرة ، وأن يبقى مستيقظا والهدوء شامل ، من العزاء للمرء أن يبقى له يومان يعيشهما ، ليلتان طويلتان أود أن أظل خلالهما وحيدا .

قضى الأشقر وقتا يفرك عينيه الضيقتين الملتهبتين بالعماص المنتشر على جوانبهما ، قدم لأندريا بعض الخبز والمربى ، وكانت لاتزال هناك قهوة فى الترميوس ، من الممتع أن يأكل المرء ثانية ، وأدرك أندريا أنه جائع جدا أو أنه الشره ؟ فهو لم يستطع رفع عينيه عن رغيف الخبز .

قال : هذا الخبز الأبيض ممتاز بدرجة هائلة ..

قال الأشقر : نعم .. أمى خبزته .

دخل أندريا دورة المياه ، وجلس طويلا يدخن ، فذلك هو المكان الوحيد الذى يمكن أن يكون فيه المرء وحيدا بحق . المكان الوحيد فى العالم ، الذى يستطيع فيه جندى من جيش هتلر العظيم أن يكون وحيدا ، من الممتع أن تجلس وتدخن

هناك ، وشعر أندريا أنه قد هزم اكتئابه ، الكآبة شبح يتلبس المرء ، لبرهة ، بعد استيقاظه . هو وحده هنا مع كل أفكاره وذكرياته ، حين لا يكون وحده ، لا يكون لديه شئ منها ، الآن لديه صديقه بول وعينا المحبوبة والأشقر وغير الحليق وذلك الزميل الذى قال «عمليا لقد كسبنا الحــرب» ، وذلك الآخر الذى تحــدث عن مزايا المدفع ٢٠٧ المضاد للدبابات ، كلهم معــه . كما أن صلوات المرء تكتسب حياتها ودفئها وحقيقتها حين يكون وحده ، كم هو ممتع أن تكون وحيدا ، حين يكون المرء وحيدا ، لايعود وحيدا ، سأتلو هذا المساء صلوات طويلة مرة ثانية ، هذا المساء فى لفوف ، لفوف هى لوحة القفز ، ينطلق منها المرء إلى كولوميا ، القطار يقترب ويقتــرب من هدفه ، العجلات التى بدأت تحركها من مونتبارنس أو حتى من الهافر ، تتحرك الآن داخلة برزميسل ، القريبة تماما من لوح القفز الخاص بى .

انتشر الضوء تماما فى الخارج ، لكن يبدو أن الشمس لم تستطع اختراق السحب ، هناك رقعة لامعة فقط يرشح منها الضوء الناعم ليستقر على الغابات والقرى والتلال البعيدة وبعض الأشخاص بلباس أسود يظللون عيونهم بأيديهم وهم يحدقون فى القطار .

وأخرجت خبطات على الباب ولعنات نافذة الصبر ، أندريا من استغراقه الهادئ مع أفكاره فى دورة المياه

وصل القطار إلى «برزميسل» فى موعده ، انتظر أندريا والأشقر حتى غادر الآخرون القطار ، ثم أيقظا غير الحليق من نومه ، خلا الرصيف قبل أن ينزلوا ، اخترقت الشمس حجاب السحب ، وأشرقت على أكوام حجارة الدبش المغبرة والرمل ، وأخذ غير الحليق القيادة على الفور .

نهض وقطع السلك الذى يقفل الباب بزراديته ، لينزلوا بسهولة من هناك ، كان لدى أندريــــا متاع أقــــل من الآخرين ، وحقيبتــه خفيفة جدا بعد أن تنــاول

كل سندويتشاته ، كل ما تبقى معــه قميص وجورب ونوتة كتابـــة وزجاجة فارغة وخوذته المعدنية ، لقد نسى بندقيته التى ركنها فى دولاب بول تحت غطاء السرج .

كان لدى الأشقر صندوق كبير للثياب ، وجربندية رجال الطيران ، أما غير الحليق فكان معه صندوقان من الكرتون وجربندية ، وكل منهما يتمنطق بمسدس، وحين ساروا فى الشمس ، ظهر لأول مرة ، أن غير الحليق ضابط شرف ، فقد أظهر الضوء الجديلة منطفئة البريق على ياقته الرمادية .

كان الرصيف مهجورا وموحشا ، والمكان كله يبدو كمحطة بضائع ، وعلى اليمين أكواخ بأعداد كبيرة ، بعضها للتنظيف والطبخ ، والبعض للإقامة والنوم ، وهناك أكواخ للدعارة بلاشك ، وكل شئ صحى تماما ، ابتعد الاصدقاء الثلاثة عن الأكواخ وتخطوها إلى اليسار ، حيث وجدوا خطا حديديا غير مستخدم تنمو عليه الأعشاب ، ورصيفا تغطيه الحشائش أمام شجرة تنوب ، استلقوا هناك ، ومن مكانهم اســتطاعوا رؤية أبراج «برزميسل» التى تضيئها الشمس وراء الأكواخ .

استعرض غير الحليق متاعة ، وقال« أنا ذاهب إلى المستشارية لأرى متى يغادر القطار الذاهب إلى لفوف . ناما لفترة » .

أخذ تصريحيهما ، ومضى ببطء يعبر الرصيف ، منفضا زيه بيديه ، كان سرواله القديم الأزرق قذرا ، تغطيه البقع والثقـــوب التى ربما ســـببتـها الأســـلاك الشائكة ، سار بخطى كسولة كالبزاقة ، متأرجحا ، ومن يراه عن بعد يظنه بحارا .

الوقت منتصف النهار والحر شديد ، وأشعة الشمس تخترق أوراق شجرة التنوب التى تقدم ظلا بخيلا جافا .

فرش الأشـقر بطانيتـه ، واسـتلقى هو وأندريا يضـعان رأسـيـهما على

جريندتيهما، يتطلعان إلى الأسقف التى يتصاعد منها البخار من بيوت المدينة اسفلهما ، ورأيا غير الحليق يسير بلامبالاة مختفيا بين بيتين .

على رصيف آخر ، كان يقف قطار متجه إلى ألمانيا ، والبخار ينبعث من الآلة ، وجنود عراة الرؤوس ينظرون من النوافذ ، لماذا لاينضم اليهم ؟ لماذا لايجد له مقعدا في ذلك القطـــار ويعود إلى الراين ؟ يمكنه بسهولة شراء تصريح اجازة من هذه البلدة حيث يمكن للمرء أن يشترى أى شىء لماذا لا يفعل ؟ ومن هناك يمكنه السفر إلى باريس ومونتبارنس وتمشيط الشوارع واحدا إثر الآخر ، والبحث فى المنازل عن ضمة واحـــدة لطيفة من يدين تنتميان للعينين ، خمســة ملايين نسمة .. ولماذا لا تكون بينهم ؟ ولمَ لا أذهب إلى «إميان» ، إلى المنزل ذى الحائط الطوبى المخرم ، وأضع رصاصة فى رأسى فى البقعة نفسها التى غاصت فيها نظرتها القريبة الرقيقة العميقة الحقيقية فى روحى لمدة ربع ثانية ؟ كل هذه الأفكار كانت كسيحة كقدميه المتعبتين ، كانا كسلانين ومتعبين ، يستلقيان يدخنان ويعوضان أيام وليالى التقلصات والتعب فى القطار ، وراح أندريا فى النوم .

★★★

حين استيقظ كانت الشمس قد تحركت بعيدا عن موقعها ساعة نومه ، لم يكن غير الحليق قد عاد ، وكان الأشقر مستيقظا يدخن ، والقطار المتجه إلى ألمانيا قد ذهب ، وحل مكانه قطار آخر ، وأشباح بملابس رمادية تنسل من الأكواخ النظيفة تحمل الربط والجربنديات ، والبنادق تتدلى من أعناقهم متجهين إلى ألمانيا ، بدأ أحدهم يجرى ، وتبعه ثلاثة ثم عشرة ، ثم بدأ الحشد كله يتدافع ، يقلب بعضهم طرود البعض ، طابور طويل من رجال تعساء ، شاحبين متعبين ، يجرون لأن رجلا عصبيا واحدا بدأ الجرى .

قال الأشقر : أين وضعت الخريطة ؟

كانت تلك أول كلمات يتبادلانها منذ فترة طويلة .

سحب أندريا الخريطة من جيب سترته ، جلس وفردها على ركبتيه ، وثبت عينيه على الجزء المكتوب عليه «جاليسيا» لكن الأشقر جرى باصبعه بعيدا إلى الجنوب الشرقي ، كان اصبعا طويلا نحيلا ينمو عليه شعر موحش ، ولم تستطع القذارة أن تجرده من تميزه .

قال : هناك أذهب ، سيستغرق ذلك عشرة أيام إذا لم تكن هناك عقبات .

غطى إصبعه ، بظفره المسطح الملمع بالأزرق ، إنحناءة الساحل كلها من أوديسا إلى كريميا ، ولمست حافة الظفر بلدة نيكولاييف .

سأل أندريا : إلى نيكولاييف ؟

جفل الأشقر ، وقال «لا» وانزلق بإصبعه على الخريطة مسافة أبعد ، ولاحظ أندريا أن زميله يفكر فى شئ آخر ، على الرغم من تحديقه فى الخريطة .

– لا . أوشاكوف ، قبل ذلك كنا فى «أنابا فى كوبان» وكما تعرف كان علينا أن نجلو .. والآن نحن فى أوشاكوف .

نظر كل منهما إلى الآخر فجأة ، ولأول مرة منذ ٤٨ ساعة ينظر كل منهما فى وجه صاحبه ، جلسا وأكلا وشربا معا ، ولعبا الورق لساعات دون أن تلتقى نظراتهما ، بدت عينا الأشقر وكأن عليهما غشاوة رقيقة رمادية فاتحة كالفيلم ، وخيل لأندريا أن نظرته تخترق غلافا لجرح متعفن ، وأدرك فجأة الهالة الطاردة التى تحيط بهذا الرجل ، فالنظر إلى شعره الأشقر وهيئته النحيلة ويديه الأنيقتين قد يكون مبهجا حين تكون عيناه صافيتين فقط ، إذن ذلك هو الخطأ فيه .

قال الأشقر بسرعة : نعم .. ذلك هو الأمر .

كما لو أنه تنبأ بأفكار الآخر ، ومضى فى حديثه بنبرات هادئة موحشة .

– ذلك هو الأمر ، لقد أفسدني شاويش في الجيش فأصبحت خاسرا ومتعفنا لا أستمتع بشئ في هذا العالم ولا حتى بالطعام ، وإذا بدا على أنى استمتع بالطعام والشراب فالأمر ليس كذلك . فأنا آكل وأشرب وأنام آليا ، ولا يمكن فعل شئ حيال ذلك .

ورفع صوته فجأة «لقد حطموني» ثم أضاف بهدوء «كنا في مكان يدعى «سيفاش» في أقصى الشمال ، مكثنا هناك ستة أسابيع .. لايوجد منزل على مرمى البصر ولا حتى جدار متهدم ، مستنقعات فقط .. مياه وشجر صفصاف قصير . اعتاد الطيران الروسي أن يمر فوقنا حين يهاجم طائراتنا التي تحلق بين اوديسا وكريميا ، الفترة التي قضيناها هناك كانت مرعبـــة بشكل لا يوصف ، كنا ثلة من ستة جنود وشاويش ، ولا يوجد مخلوق حي لعدة أميال حولنا ، اعتادوا احضـــار تموينن مرة كل أسبوعين بعربة لورى توصله إلى حافـــة المستنقع ، ثم نحمله عبر قنطرة من جذوع الخشب صففناها حتى مخفرنا الأمامي ، كان الأكل كثيرا ، وهو التسلية الوحيدة لنا ، إلا إذا كنت تهتم بصيد السـمك أو مكافحة الحشرات ، كانت هناك بلايين الحشـــرات تكفي لتدفع المـــرء إلى الجنون ، كان الشاويش وحشا. ولم يفعل شيئا خلال الأيام الأولى سوى الازدراء بالآخرين واستخدام لغة قذرة ، لم يأكل إلا اللحم وبالكاد بعض الخبز.

أنَّ الأشقر بشكل مخيف وقال « أي فرد يمتنع عن أكل الخبز فهو إنسان ضائع» .

ساد صمت مميت ، بينما الشمس تسطع ذهبية دافئة رائعة فوق برزميســل

– يا الهي . لقد أفسدنا ولا توجد كلمة غير ذلك ، كلنا فعلنا ما أراده الشاويش عدا رجل واحد رفض ، كان أكبر منا ، متزوجا وله طفلان ، كان يرينا ، في المساء غالبا ، صور طفليه ويبكي ، كان ذلك قبل أن يحدث ما حدث ، وحين

حاولنا ، قاومنا بقبضتيه وهددنا ، ولم يستسلم ، كانت قوته تعادل قوة خمستنا معا ، بل أكثر ، وذات ليلة حين كان فى الحراسة وحده فى الخارج ، أطلق عليه الشاويش الرصـــــاص ، وأخرجنا من فراشنا وجعلنا نســـاعده فى إلقاء جثـــة الرجل فى المســتنقع ، أقول لك الجثث ثقيلة ، جثث الرجــــال ثقيلة بدرجة مفــزعة ، ثقيلة كالعالم ، بالكاد حملناه نحن الستة ، كانت السماء تمطر وأعتقد أن الجحيم يشــبه ذلك الجو ، وأرسل الشاويش تقريرا يقول إن الرجل قد تمرد وهدده بسلاحه ، ووضع فى يده مســـدسا ينقص طلقة كدليل ، وكتبــوا إلى زوجته أنه مات من أجل ألمانيا العظمى فى مستنقعات سيفاش ، جـــاء لورى التموين بعد ثمانيـــة أيام ، وأحضر لى برقية تقول إن مصنعنا قد هوجـــم بغارة جوية .. وتطلب منى المغادرة ، فركبت اللورى دون أن أخبر المخفـــر .. رحلت ببساطة .

كانت هناك رنة فرح فى صوته «نعم غادرت بسرعة واهتياج .. لابد أنه جن من الغيظ ، أخذونى إلى غرفة التحقيق فى القيادة لأدلى بشهادتى عن موت الرجل والد الطفلين ، فقلت بالضبط ما قاله الشاويش ولم أذكر الحقيقة . تركونى أذهب ، فغادرت إلى أوشاكوف فأوديسا ومن ثم إلى الوطن .

كان أندريا فزعا ومشمئزا ، إنه اسوأ شئ سمعه .

وأضاف الأشقر «منذ ذلك الوقت لا أجد أى متعة فى أى شئ ، أخاف أن أنظر إلى امرأة ، وطوال الفترة التى قضيتها فى البيت كنت منزويا ، أبكى كطفل متخلف عقليا ، وظنت أمى أنى مصاب بمرض خطير ، ولم استطع أن أخبرها بالحقيقة ، ولم استطع أن أخبر أحدا » .

تملك أندريا اشمئزاز مرعب كالسم يسرى فى دمه ، حاول أن يمسك بيد الأشقر ، لكن الجندى تراجع فى رعب صائحا : «لا .. إياك» واستدار ليضع وجهه

في الأرض ورأسه بين يديه ، وبدأ ينهنه باكيا ، وفكّر أندريا .. قد تجعل هذه النهنهة الأرض تنشق وتبلعه .

كانت الشمس قد أدفأتهما ، يالجنونها وهي تمضي في السماء ، تبتسم وهي تنصب على عنقود الأكواخ وأبراج برزميسل .

قال الأشقر من خلال نهنهاته «لا يوجد علاج سوى الموت أريد أن أموت وتلك هي النهاية ، أن أموت » .

وغص صوته بأنين غريب ، واستطاع اندريا أن يسمعه يبكي بدموع حقيقية ، وأدرك أن مدحلة من دم وقذارة وطين قد سارت فوق رفيقه ، وأنه صلى من خلال يأسه صارخا يطلب المساعدة كغريق يكافح من أجل الحياة ، في بحر موحش ، بعيدا عن الشاطئ دون أن يجيبه أحد ، من الخير له أن يبكي .. على المرء أن يبكي ، وياله من رجل تعيس ذلك الذي لايبكي ، وعليه هو أيضا أن يبكي ، غير الحليق بكى، والأشقر يبكي ، وأنا ، لثلاث سنوات ونصف لم أبك ، لم أذرف دمعة منذ اليوم الذي ذهبت فيه لأصعد التلة في إميان ، ثم عدت وقد أهملت السير ثلاث دقائق في الحقل للمكان الذي جرحت فيه .

غادر القطار الآخر ، وخلت المحطة ، شئ مضحك ، لو أردت العودة إلى الوطن لفعلت ، لكنى لم أستطع ، لم أستطع ترك هذين الاثنين وحدهما ، ماعدت أرغب في العودة .. ابدا

المحطة ، بخطوطها الحديدية المتعددة ، خالية الآن ، الشمس تلمع على القضبان ، وفي المدخل جماعة من البولنديين تكوم حجارة مهشمة، وشخص يرتدي سروال غير الحليق يسير على الرصيف ، يستطيع المرء أن يرى عن بعد أنه لم يعد الشخص نفسه ، المتوحش ، الذي يجلس على أرضية الممر يشرب الخمر لينسى حزنه ، كان هذا الشخص شيئا مختلفا ، سرواله فقط هو الذي ينتمي لغير

الحليق . كان وجهه ناعما ومتوردا ، و«كابه» ينحرف قليلا على رأسه ، ونظرة جديدة في عينيه ، نظرة ضابط ، خليط من الثقة بالنفس والمرح والسخرية والجندية ، بدا أن عينيه شفيتا مما كان بهما ، غير الحليق أصبح حليقا ، مغتسلا، نظيفا ، يداه نظيفتان، ومن الأفضل أن نعرفه باسمه «ويلى» ، ولا نفكر فيه كغير الحليق .

كان الأشقر مازال مستلقيا على بطانيته ، ووجهه بين يده ، ولا يستطيع المرء أن يعرف من تنفسه الثقيل إذا كان ينام أو يئن أو يبكى .

سأل ويلى : هل هو نائم ؟

أجاب أندريا : نعم .

فتح «ويلى» التموين الذى أتى به ، وألقاه بأناقة فى كومتين ، قائلا :

- تموين ثلاثة أيام .

كان هناك الكثير لكل منهما ، قطعة كبيرة من السجق المطهى ، ملفوفة فى ورقة غارقة بالدهن ، وزبدة تزن القطعة نصف رطل ، وثلاث عبوات من السكر وسجائر .

سأل أندريا : ألم تحضر شيئا لنفسك ؟

نظر إليه «ويلى » دهشا ، وقال بألم تقريبا : لقد أخذت تموينى لمدة ستة عشر يوما مقدما .

كان أندريا لايكاد يصدق أن القصة التى أخبره بها «ويلى» فى الليل لم تكن حلما ، لكنها كانت حقيقية ، و«ويلى» هو الرجل نفسه ، لكن ياله من تغيير ، فها هو هنا ، فى ظل شجرة التنوب ، حليق نظيف بعينين هادئتين ، محمرتين قليلا، يرتدى سرواله الأسود بعناية ، بحيث لا تفسد ثنياته ، سروال جديد يناسبه تماما، ويبدو الآن فى هيئة ضابط .

قال ويلى : أحضرت بعض البيرة أيضا .

وسحب ثلاث زجاجات من حقيبته ، ووضع صندوقا كرتونيا بينهما ليكون كترابيزة ، بدأ يأكل مع أندريا ، لم يتحرك الأشقر ، فمازال مستلقيا ووجهه إلى الأرض ، ويبدو كجندى ميت فى الميدان .

وضع «ويلى» لحم خنزير وخبز قمح وبصلا ، كانت البيرة باردة وممتازة

قال «ويلى» : هؤلاء الحلاقون البولنديون رائعون ، تدفع ستة ماركات فيفعلون لك كل شئ وتخرج رجلا جديدا ، بما فى ذلك الشامبو .. إن طريقة قصهم للشعر رائعة .

خلع قبعته ، وفرّج أندريا على روعة حلاقة شعر رأسه قائلا :

– ذلك ما أسميه حلاقة .

نظر إليه أندريا بدهشة ، كان فى عينيــه تعبير وجدانى ، كذلك الذى تتوقعه من ضابــط عاطفى شعر بالبهجة لتناوله وجبة على مائدة عادية بعيدا عن المقصف

قال «ويلى» وهو يمضغ طعامه ويشرب بيرته : أنتما .. يجب أن تذهبا وتغتسلا وتتركوهم ينظفونكما ، فستشعران بأنكما رجلان آخران .. كل شئ ينسلخ عنكما كل القذارة المتراكمة . لكن أولا يجب أن تحلقا .. فذلك سيغيركما ..

وقال ناظرا إلى لحية أندريا : وأنت بالتأكيد . سيكون الأمر رائعا بالنسبة لك .. لاتعود تشعر بالتعب . فالمرء . المرء ..

تردد باحثا عن تعبير مناسب «المرء ببساطة يصبح رجلا آخر .. ثم ان لديك الوقت . فقطارنا لن يغادر قبل ساعتين سنكون هذا المساء فى لفوف .. وهناك سنركب قطار المدنيين السريع الذى يحمل البريد من وارسو لبوخارست . إنه قطار جميل اسافر فيه دائما .. لكن على المرء أن يحصل على تصريح .. وسنحصل عليه .

ضحك وقال «سنحصل على تصاريحنا . لكن لن أخبرك كيف .. وسرح أندريا

مع أفكاره ، لن يستغرق أربعا وعشرين ساعة من لفوف حتى المكان الذى سيحدث فيه الأمر ، هناك خطأ مافى الجدول . لا أعتقد أننا سنغادر لفوف فى الخامسة صباحا .

طعم الخبز رائع ، فرد عليه الزبد بكثافة ، وتناول قضمات كبيرة من السجق معه ، أمر غريب ، هذا زبد يوم الأحد ، والمفروض أن بعضه ليوم الاثنين ، وها هو يأكل زبدا ليس له فيه حق ، لا زبد الأحد أو الاثنين ، فمن المفترض أن يكون التموين من منتصف اليوم إلى منتصف اليوم التالى ، وفى ظهيرة الأحد لن يكون مسجلا على كشوف التموين ، ربما يقدمونه لمحاكمة عسكرية ويضعون جسده على منصة القضاء أمام وكيل نيابة عسكرى ، ويقولون «هذا رجل تناول تموين الأحد من الزبد وجزءا من تموين الاثنين ، لقد سرق الجيش الألمانى العظيم ، كان يعرف أنه سيموت ، ومع ذلك فقد أكل الزبد والسجق والسكر والخبز ودخن السجائر ، ولا يمكن أن نسجل ذلك فى دفاترنا .. فليس هناك ما يسمح بتزويد الميتين بالتموين ، نحن لسنا همجيين .. فنحن لا نُدفن تموين الميت معه ، نحن مسيحيون طيبون ، وهذا الجندى سرق الجيش الألمانى المسيحى العظيم لألمانيا العظيمة ولابد أن ندينه تماما .

قال «ويلى» ضاحكا : فى لفوف .. سأحصل على تصاريحنا للقطار المدنى ، فهناك يمكنك الحصول على أى شئ .. وأنا أعرف كيف أفعل ذلك .

كان على أندريا أن يقول كلمة ، أن يسأل سؤالا ، فسيعلم آنذاك كيف وأين يمكن الحصول على التصاريح ، كان «ويلى» يتحرق شوقا لاخباره ، لكنه لم يرد أن يعرف ، يناسبه تماما أن يكون لديه تصريح للسفر فى قطار مدنى سريع ، فسيستمتع بذلك ، فالقطار لايحمل جنودا ورجالا فقط ، إنه أمر شنيع أن تعيش مع الرجال فقط، فآنذاك يكون الرجال أكثر أنوثة من النساء . سيجد فى القطار

نساء بولنديات ورومانيات وألمانيات ، جاسوسات ودبلوماسيات ، ويجب أن يسافر إلى المكان الذى سيموت فيه بصحبة النساء ، تساءل «ترى كيف سيكون موته ؟» هجوم من رجال المقاومة ؟

البلد مملوء بهم ، لكن لماذا يهاجمون قطارا يمتلئ بالمدنيين ؟ فهناك قطارات تحمل جنودا فى اجازاتهم وأخرى تحمل الأسلحة والمتاع والمؤن والملابس العسكرية والنقود والذخائر ووحدات كاملة من الجند !

شعر «ويلى» بخيبة الأمل حين لم يسأله أندريا عن المكان الذى سيحصل منه على التصاريح ، كان متشوقا للحديث عن لفوف ، صاح وضحك ، وأندريا محجم عن سؤاله ، فبدأ يحكى القصة :

– آه لفوف .. أتعرف .. اعتدنا هناك أن نزيف مواتير العربات ..

قال أندريا : ماذا ؟ هل اعتدتم دائما تزييفها ؟

– لا .. ليس دائما .. حين يكون لدنيا واحد .. نزيفه .. أخبرتك أنى كنت فى ورشة اصلاح للسيارات . حين نقوم بذلك يتبقى لدينا الكثير من القطع المستهلكة – خردة .. لكنها فى الواقع ليست خردة .. ، على المرء أن يقول إن هذه الآلة تالفة حتى تصبح كذلك .. ، وعلى المشرف أن يغلق عينيه فقد كان ينام مع يهودية ولا يريد أن يبلغ عنه أحد . ولكنك تعرف أن الآلة الخردة ليست دائما تالفة ، ومن عربتين أو ثلاث يمكن للمرء أن يصنع عربة رائعة . الروس خبراء بذلك . ويمكنك أن تبيع الواحدة فى لفوف بأربعين ألف مارك ، ونقسم المبلغ على أربعة ، نحن الذين فى القسم ، ذلك خطير بالطبع ، ولو مسكت لضعت ، لكن على المرء أن يخاطر .

تنهد بعمق ، وأضاف : إنه عمل مقلق وخطر ، فالمرء لا يعرف إذا كان الرجال الذين يعملون ينتمون إلى الجستابو أم لا . يشعر المرء بالأمان بعدما ينتهى كل

شئ ، يعيش المرء بعرق بارد لمدة خمسة عشر يوما تقريبا ، فإذا لم يكن هناك تقرير ولم يعتقل أحد ، آنذاك يشعر بالأمان .

تناول جرعة بيـــرة وقال : أربعون ألفا .. حين أفكر بكل تلك العربات واللوريات الملقاة في الوحـــل حول نيكوبول .. ! أقول لك إنها تســـاوى الملايين .. ببساطة ملايين .. ولا أحد يستفيد منها .. الروس فقط ، أشعل ســـيجارة وبدأ يدخن بمتعة : أتعلم .. في الإجـــازات وأوقـــات الفراغ يمكن للمرء أن يذهب لأســـواق أقحل خطـــورة .. فيمكنـــه أن يتخلص من قطع غيـــار أو عـــربة كاملـــة أو بعض الإطـــارات أو حتى الملابس . الناس مجانين في سعيهم للحصول على ملابس ، يمكن للمرء أن يحصل على ألـــف مارك مـــقابل سترة .. في الوطن بنيت منـــزلا ألحقت بـــه ورشـــة من مكاسبى من .. من ... ماذا تسميها ؟

لكن أندريا لم يقل شيئا . نظر إلى «ويلى» فرأى تعابيره معتمة ، وجبهته مجهدة ، ويشرب بقية بيرته بسرعة . عاد كما كان قبل أن يحلق ذقنه . مازالت الشمس تشع ذهبية على أبراج «برزميسل» ، وبدأ الأشقر يتحرك ، ويستطيع المرء أن يدرك أنه يتصنع النوم ، ويتظاهر الآن بأنه يستيقظ ، تمطى ببطء واستدار وفتح عينيه . لم يدرك أن آثار الدموع مازالت على خديه القذرين ، وقد تركت أخاديد منتظمة من القذارة التى تغطى وجهه ، تشبه تلك التى على وجه بنت صغيرة سرقت منها زميلتها سندويتشا فى فناء المدرسة . ربما نسى أنه كان يبكى . كانت عيناه قبيحتين وهما محاطتان بهالتين حمراوين ، ويمكن للمرء أن يتخيل أن لديه مرضا جنسيا .

تثاءب وقال : جميل أن يجد المرء شيئا يأكله .

لم تعد بيرته باردة ، لكنه شربها بظمأ ، وبدأ يأكل ، بينما الآخران يدخنان،

ويشربان بمتعة شخص خالى البال بعض الفودكا الجميلة نصف الشفافة التى أخرجها و«يلى» من حقيبته .

ضحك «ويلى» قائلا : نعم ..

وقطع كلامه فجأة حتى أن الاثنين نظرا اليه بانزعاج .

احمر وجهه ، ونظر إلى الأرض ، ثم ابتلع جرعة من الفودكا .

قال أندريا : ماذا كنت ستقول ؟

أجاب «ويلى» بهدوء : أردت أن أقول إنى أشرب الآن نقود الرهن .. حرفيا أشربها .. ومازال هناك قسط يجب دفعه للبيت الذى اشترته لى زوجتى حين تزوجنا .. ليس كثيرا - أربعة آلاف مارك - أردت أن أوضح ذلك .. لكنى إلى الجحيم بالنقود .. اشربوا .. فى صحتكم .

لم يرغب أندريا ولا الأشقر فى الذهاب إلى الحلاق أو إلى مكان الاغتسال وسط الأكواخ . حمل كل منهما فوطة على ذراعه وقطعة صابون مدورة .. واتجها إلى «طرمبة» كبيرة للقطارات فى نهاية الخط .

صاح «ويلى» وراءهم : لا تنسوا أن تنظفوا أحذيتكم يا أولاد .

كان حذاؤه ملمعا تماما .

كان سرسوب من الماء يسيل من «الطرمبة» ويصنع بركة فى الرمال ، يستحق المرء أن ينال مغتسلا ، لكن رغوة الصابون غير كافية ، استخدم أندريا صابون الحلاقة قائلا لنفسه إنه لا يحتاجه ثانية . من المفترض أن يستعمل هذا الصابون لمدة ثلاثة أشهر ، وقد تسلمه منذ شهر ، ولكنه لا يحتاجه الآن وقد يذهب ما تبقى منه إلى المقاومة ، فالبولنديون يحبون الحلاقة ، وهم متخصصون فيها وفى تلميع الأحذية ، وما إن شرعا بالحلاقة حتى كان «ويلى»

ينادى عليهما ويلوح لهما بإشارات ملحة بحيث جمعا اشـــياءهما،وهرعا إليه وهما يجففان وجهيهما ، نادى عليهما قائلا : يا رجال .. ها هو قطار متأخر قادم من كوفيل متجه إلى لفوف .. لنركبه ونكون فى لفوف بعد أربع ساعات .. ويمكن أن تحلقا هناك .

ارتـدوا ســـتراتهم ومعاطفهم وأغطية رءوسهم ، وجروا مع حقائبهم إلى الرصيف حيث وقف القطار . لم ينزل الكثـــيرون ، لكن حـــين رأوا عربة ينزل منها جمـــع من جنـــود الدبـــابـــات بأزيـــائهم الجـــديدة ، صعـــدوا إليها بسرعة واحتلوا الممر أمـــام البـــاب قبل أن يتنبه الجنـود الآخرون فينتشروا ويحتلوه .

قال «ويلى» مزهوا : الساعة الرابعة .. ومعنى هـذا أن نكـون فى لفوف فى العاشرة علـى أكثر تقدير . ذلك رائع . لقـــد جاء هـذا القـــطار المتأخر فى موعـــده بالنسبة لنا . سنقضى ليـلة كامـــلة فى لفوف .. ليـلة كاملة .

نظف أندريا أذنيه جيدا بعد أن جلس ، فتح حقيبته ورتب أشياءه التى كان قد دسها فيها بسرعة . كان هناك قميص قذر وكلسونان قذران وجورب نظيف ، بقايا السجق وبعض الزبد فى علبته . سيبقى السجق لمساء يوم الاثنين ، والزبد لظهر الاثنين ، والحلوى الأحد والاثنين ، والخبز والسجائر حتى مساء الأحد . ثم هناك كتاب صلواته الذى حمله معه طوال الحرب ولم يستخدمه قط ، كان يتلو الصلوات عن ظهر قلب أو يختلقها ، لكنه لا يبدأ رحلة دون أن يحمله معه . عجيب كل شئ عجيب . واشـعل سيجارة من حصته فى الفترة من ظهر الجمعة حتى ظهر السبت .

بدأ الأشقر يعزف على الهارمونيكا ، والآخران يدخنان بصمت ، والقطار يغادر المحطة . كان الأشقر يعزف بحق ، وبدا أنه يرتجل ، فهو لم يعزف أية

مقطوعة معروفة ، بل معزوفات غريبة بلا شكل ، مثيرة وناعمة ، جعلت أندريا يـ في المخفر الذي في المستنقعات ، ترى مـاذا يفعل الآن أولئك الرفـاق فـ موقعهم الدفاعي في مستنقعات سيفاش ؟ وانـتابته رعـشة ، ربما قتـلوا واحـدا بعد آخر ، أو قتلوا الشاويش ، أو ربما جلوا عن المنطقة . سأصلي للرفاق هناك ، وللرجـل الذي مـات من أجل ألمانيا لأنه لـم يوافق على فعل ما فعله الآخرون . كانت ميتة بطل على كل حـال ، جثـته مدفونة في مكان ما في مستنقع في كريميا ، ولا أحد يعرف أين ، ولا أحد سـيبحث لينقل جثتـه إلى مقبرة الشهداء ، لن يفكر أحد فيه ، ويوما ما سـيقوم ثانية هنـاك في المستنقعات ، واستحوذ التفكير بهذا الرجل ، والد الطفلين ، الذي تعيش زوجته في ألمانيا ، على ذهن أندريا ، وتخيل ممثل السـلطة المحليـة في بريمن أو كـولون أو ليفـركوسين ، يضع على وجهه تعبيرا حزينا ، ويقدم للزوجـة خطـابا يعلمها بوفـاة زوجها ، يوما ما سـيقوم ثـانية هناك في مسـتنقعات سيفـاش وسيعلم من لا يعـلم أنه لم يمت في سبيل ألمـانيا ، وأنه لم يقتـل وهو يهاجم الـشاويش ، وأنه قـتل لأنه رفض أن يكون مثـل الآخـرين تلك هي الحقيقة البشـعة المقـززة ، ارتعد وهز رأسه .

جفل الاثنـان حين تـوقف الأشقر فجـأة عن العزف ، وكأنهما كانا في بيت عنكبوت ، يلفهمـا بانتظـام بخيـوطه المغـزولة ونغمـاته المغلفة ، ثم تمـزق كل شـئ . قال الأشـقر ، مشـيرا إلى ذراع جنـدي يقـف في النافذة يدخن :

– نصنع ذلك في الوطن . من المضحك أن نرى القليل منها .. مع أننا نصنعها بالآلاف .

لـم يفهمـا ما كان يتحـدث عنه ، فاحمر وجهـه وارتبـك أمام أعينهما

المتسائلة .

قال بغضب تقريبا : اعتدنا أن نصنع كميات كبيرة منهـــا ، والآن نصنع شارات للحملة العسكرية ، ســـرعان ما يوزعـــونها ، وصنعنا قبل ذلك شارات لصائدى الدبابات ، وقبل ذلك شريط السوديت بوسام مصغر ، كان ذلك سنة ١٩٣٨ .

كانا يحمـــلقان فيـــه كما لـــو أنـــه يتكلم العبـرية ، وزاد احمرار وجهه ، فصاح : اللعنة .. ألا تفهمان .. لدينـــا مصنع فى الوطن . مصنع للأعـــلام الوطنية .

قال ويلى : مصنع أعلام !

– نعم . لقد سمى كـــذلك لأننا كنا نصنع الأعلام أيضا .. حمولات من العربات المـــلوءة بالأعـــلام . كان ذلك فى البـــداية سنة ١٩٣٣ على ما أعتقد . لكننا كنا نصنع أســـاسا أشرطة ومنمنمـــات ودروع نواد حسب الطلب . أنتم تعرفـــون نوعية تلك الأشياء .. درع معدني لأبطال النوادى سنة ٣٤ ، دروع للنوادى الرياضـــية ودبوس على شكل صليب معقـــوف وأعلام صغيرة من الصفيـــح لتثبيتها على الســـترة بخطوط أفقية زرقـــاء وبيضاء وحمراء ، أو بشكل التصميم الفرنسى ذى الألـــوان الثـــلاثة ، لكن منذ اندلاع الحرب اقتصرنا على السوق الألمـــانية . صنعنا الآلاف من الأوســـمة للجرحى – ســـوداء وفضية وذهبية – لكن معظمها أســـود ، كسبنا الكثير من النقود . واعتدنا أن نصمم ديكـــورات للخدمات العامة والمراســـم ، وصنعنا كميات هائلة من الأوســـمة لمشـــاة الخطـــوط الأماميـــة ، ومشـــابك صغيرة يمكن تثبيتها على الملابس . تنهد وانهار فجأة ، ثم بعد أن ألقى نظرة ثانية على شارة الجندى

المستند على النافذة يدخن غليونه ، بدأ يعزف مرة ثانية .

ضوء النهار يتلاشى ببطء ، والغسق يهبط فجأة دون فاصل ، غامرا السماء بفيضانه المعتم . سيحل المساء ، وبرودة الليل تقف على الاعتاب . واصل الأشقر عزف مقطوعاته ، تسقط نغماتها في أذني أندريا كالخدر . فكر في «سيفاش» وضرورة أن يصلي للرجال في مخافر المستنقعات قبل أن ينام ، كانت ليلته قبل الأخيرة . وبدأ النعاس يغالبه . صلى وصلى ، لكن الكلمات غدت مختلطة في ذهنه ، وعامت أمام عقله . فكر في زوجة ويلي ببيجامتها الحمراء .. وبالعينين .. وبالفرنسي وبالخوذة .. بالأشقر وبالجندي الذي قال «عمليا نحن كسبنا الحرب» .. وراح في النوم .

★★★

استيقظ هذه المرة لأن القطار توقف طويلا ، الأمر مختلف حين يتوقف في محطة ، فالمرء ينظر حوله ويتثاءب ، ويشعر أن العجلات تتعجل الدوران ، ويعرف أنها ستتحرك على الفور . ولكن هذه المرة توقف القطار طويلا وكأن العجلات تجمدت ثابتة . إنه يقف على خط فرعي . اعتدل أندريا في جلسته فرأى الجميع قد تجمهروا على النوافذ . شعر بأنه مهجور يجلس وحده في الممر المظلم ، خاصة وهو لا يرى «ويلي» أو الأشقر ، لابد أنهما في المقدمة عند النوافذ . الجو بارد ومظلم في الخارج ، خمن أنها الواحدة أو الثانية صباحا . سمع صوت عربات تسير على خط آخر مملوءة بجنود يغنون أناشيدهم الغبية القديمة المضجرة ، حتى يظن المرء أنها مدفونة في أحشائهم ، كالنغمات المسجلة على اسطوانة ، بحيث تتدفق خارجة حين يفتحون أفواههم . غالبا ما غنى أندريا الأناشيد نفسها بلا وعي وعن غير قصد ، سمعهم أندريا يصرخون بهذه الأغنيات في ظلام ليل بولندا الكئيب ، وخيل إليه أنه يسمع صداها من

بعيد ، ومن وراء الأفــق المظلم غير المرئى ، صدى حاد رفيع ساخر . لابد أن هناك كثيرا من العربات الفارغة فى القطار الآخر ، لكن سرعان ما مضى وتلاشى الغناء . ترك الجنود النوافــذ وعــادوا إلى أماكنهم ، وعاد «ويلى» والأشقر .

قال ويــلى «فرق الإس إس S.S. لابد أن هنــاك قــلاقــل فى «تشيركاسى» قال صـــوت» ربمــا حوصــر رجالنا فى جيب هناك .. وهؤلاء الخياطون ذاهبــون . لقص ذلك الجيب .. سيجعلونهم يرون النجوم فى عز الظهر .

قال «ويلى» فى ضيق ، وقد عاد ليجلس بجانب أندريا :

– إنها الثانية صباحا .. يا إلهى ..لن نستطيع اللحاق بالقطار فى لفوف إذا لم تتحرك على الفور .. سيستغرق ذلك ساعتين لنصل هناك .. ثم نسافر صباح الأحد .

قال الأشقر الذى ذهب إلى النافذة ثانية «سيسير القطار بعد قليل» .

قال «ويلى» : «ربما .. ومع ذلك لن يكون لدينا وقت نقضيه فى لفوف .. ماذا يمكن للمرء أن يعمل فى نصف ساعة» وضحك .

وفجأة سمعا الأشقر يصيح : أنا !

وجاءهم صوت من الخارج «أيوه أنت .. استعد واذهب إلى موقعك» .

رجع الأشقر إلى مكانه متذمرا ، كان هناك شخص بخوذة معدنية ، يقف فى الخارج ويدفع رأسه من النافذة . كان رأسا كبيراً ثقيلا .. ، وحين أشعل الأشقر عود كبريت ليرى حزامه وخوذته ، رأوا عينى الرجل السوداوين وجبهته رسمية المظهر .

صاح الرجل ذو الخوذة الحديدية «هل هناك ضابط شرف هنا ؟» .

لم يجبه أحد ، فكرر قوله ، ولم يتلق إجابة ، ولكز «ويلى» أندريا بكوعه مازحا ، عاد الصوت ليقول «لا تضطروني للصعود والتفتيش .. إذا وجدت أحدا فسأقبض عليه» .

مرت ثانية وأخرى ولم ينطق أحد ، مع أن أندريا رأى القطار يمتلىء بضباط الشرف ..

فجأة صاح صوت قرب أندريا قائلا : هنا .

قال الرجل ذو الخوذة المعدنية : هل كنت نائما ؟

قال الصوت : نعم

وعرف أندريا أنه الجندى الذى يحمل الشارة .

ضحك بعض الرجال .

قالت الخوذة المعدنية : ما اسمك ؟

– شنايدر .

– أنت المسئول عن هذه العربة طوال وقوفها هنا .. هل تفهم ؟

– حاضر يا سيدى .

– وهذا الرجل هناك (وأشار إلى الأشقر : ما اسمك ؟ أجاب الأشقر «وكيل عريف سيابنتال») وكيل العريف سيقف حراسة أمام العربة حتى الساعة الرابعة .. وإذا بقينا بعد ذلك الوقت يمكنك أن تريحه وتستبدله بآخر .. وضع حارسا على الجانب الآخر واستبدله فى الرابعة أيضا .. وذلك اتقاء لخطر رجال المقاومة .

– حاضر يا سيدى .

اختفى الرجل وهو يتمتم باسم «شنايدر» .

ارتعش أندريا ، كل شئ إلا وقفة الحراسة هذه ، إنه يجلس بجانبه ومن المحتمل أن يمسك بكمه ويجعله يقوم بالحراسة .

أشعل شنايدر بطارية وتطلع إلى الممر ، وقع الضوء أولا على ياقات جنود يتظاهرون بالنوم . رفع أحدهم من ياقته وقال ضاحكا» أحمل بندقيتك وأخرج .. الذنب ليس ذنبي» .

لعن الرجل ، لكنه حمل بندقيته واستعد ، وفكر أندريا ماذا لو اكتشفوا أني لم أحضر بندقيتي ، وأني غير مسلح ، وقد تركتها في دولاب بول تحت غطاء السرج . ماذا سيصنع بول بها ؟ قسيس ببندقية ؟ صيد ثمين تطرحه الريح للجستابو ، لا يستطيع أن يبلغ عنها وإلا كان عليه أن يذكر اسمي وفصيلتي .. كم كنت مغفلا لترك بندقيتي وسط متاعه .

قال شنايدر للرجل الذي يلعن «فترة قصيرة حتى ينطلق القطار» فتحسس الرجل طريقه إلى الباب وفتحه وخرج .

مرت ربع ساعة والقطار لم يتحرك ، وأصبح الكل قلقا واستعصى عليهم النوم . ربما رجال المقاومة في الجوار بالفعل ؟ ليس هناك اسوأ من أن تهاجم في قطار ، والليلة القادمة قد يحدث الشيء نفسه ، قد يكون الأمر هكذا بين لفوف و ..... لا لن أصل إلى كولوميا .. أربع وعشرون ساعة أخرى ربما ست وعشرون على الأكثر .. لقد بدأ السبت فعلا . لقد كنت لا مباليا بدرجة مرعبة ، أعرف منذ يوم الأربعاء ، ولم أفعل شيئا حيال ذلك ، لقد تأكدت لكني لم أصلّ أكثر مما اعتدت أن أفعل ، لعبت الورق وشربت الخمر وأكلت بنهم ونمت كثيرا ، والزمن يجري كما يفعل دائما ، وهأنذا كل ما بقي لي أربع وعشرون

ساعة ، ولم أفعل شيئا . حين يعرف المرء موعد موته ، فهناك الكثير الذى يجب عمله ، خطايا يندم عليها ، وصلوات يتلوها ، صلوات كثيرة .. لكنى لم أصل أكثر من المعتاد ، مع أننى متأكد مما سيحدث دون ظل من الشك ، بقى يوم واحد بالضبط ، من صباح السبت إلى صباح الأحد . لابد أن أصلى وأصلى .

قال الأشقر دافعا رأسه من النافذة «إعطنى خمرا ... إن الجو برد موت» . وبدا وجهه المنحط مثل كلب صيد ، تحت خوذته المعدنية ، قبيحا . وضع «ويلى» فوهة الزجاجة على شفتيه وتركه يأخذ جرعة كبيرة ، ثم قدمها لأندريا الذى رفض . صاح الأشقر «هاهو قطار قادم» .

وهرع الجميع إلى النوافذ ، قطار آخر بعد نصف ساعة من القطار الأخير ، مملوء بالجنود الذين يغنون ، واستمعوا ثانية للأصوات الزاعقة بالأغنيات تطفو عبر ظلام ليل بولندا الكئيب . استغرق مرور القطار زمنا ، عربات عفش ومطابخ ، وعربات جنود يغنون «اليوم لنا ألمانيا وغدا كل العالم» .

قالى ويلى : قوات إضافية .. وكلها ذاهبة إلى تشيرنوفتسى .يبدو أن هناك مشكلة كبيرة .

تكلم بخفوت ، فبجانبهم يمكن للمرء أن يستمع لأصوات متحمسة مفعمة بالأمل تردد أنهم سرعان ما يعيدون النظام إلى نصابه .

ووصلتهم الأصداء الواهية للغناء وهى تتلاشى فى الظلام والقطار ينطلق إلى لفوف . وانتهت الاصوات فى نشيج خافت رقيق ضاع فى ظلام ليل بولندا الكئيب .

وتمتم ويلى « يا الهى .. لاتجعلنا ننتظر سبعة عشر قطارا أخرى من هذه

القطارات» .

وقدم الزجاجة مرة أخرى لأندريا الذى رفضها ثانية ..

حان وقت الصلاة أخيرا ، لم يكن ينبغى إضاعة الليلة السابقة ، فى النوم والنعاس والشرب ، لابد أن أصلى وأندم ، وهناك الكثير الذى يجب أن أندم عليه ، فقد فعلت فى حياتى التعيسة هذه الكثير مما أخجل منه . فذات يوم حار رطب فى فرنسا ، شـــربت كوحـــش زجـــاجة كاملة من براندى الكرز ، ومثل بهيمة وقعت شبه قتيل .

شربت زجاجة براندى كاملة فى حفرة على طريق غير مشجر حين كانت درجة الحرارة ٤٠ فى الظل . شـــربتها لأنى كدت أمـــوت عطـــشا ولم يكن لدى شئ آخر أشربه ، كم كان ذلك مقـــززا ؟ ولـــم اســـتطع التخـــلص من آثار السكر لمدة ثمـــانية أيـــام .. وتشـــاجرت مع بـــول وأهنته ولقبته بالشـــيطان المراوغ ، كنت دائما وقحا مع القســـاوسة . حين يكـــون المـــرء على وشك الموت فمن المفزع أن يتذكر أنه قد أهـــان شـخصا مـا . حين كنت فى المدرســـة أهنت المدرســـين وكتبت كلمات بذيئة على تمثال شيشرون . كان ذلك غباء ، كنت صغيرا لكنى كنت أعرف أن ما أفعله خطأ وسخف ، وفعلته لأنى أردت أن أضحك الأولاد الآخرين . مجرد تفـــاهة وغرور ، لم يكن لـــدى شىء ضد شيشرون ، وحتى لو كان فليس فى ذلك ما يســـوء ، فعلت ذلك لأبدو شقيا ، وما كان يجب علىّ أن أفعل .

ثم هناك الضابط «موللر» ، ذلك الشخص الحزين الشاحب الذى تثقل شارات رتبته كتفيه ، ويستطيع المرء أن يقرأ على وجهه أنه مرشح للموت : كنت ألسعه بالنكات وأسخر من مواقفه الهتلرية المراهقة ، ادعيت الذكاء على حسابه ، هو الذى تعرف من مجرد النظر إليه أنه سيقتل ، فقد كان يسعدنى أن يظن بى أنى

جندى ساخر ومجرب . ربما كان ذلك اسوأ ما فى قسوتى ، ولا أعلم إذا كان الله سيغفر لى ، كنت أعرف أنه «ابن موت» ومتأكد أنه فى أول هجوم على جبال الكارباث سيتصدى جسده لرصاصة ويتدحرج هابطا المنحدر ، سيكون الأمر مرعبا ومضحكا وأنت تراه يتدحرج بسرعة متزايدة ، يلتقط جسمه الأقذار حتى يستلقى فى القاع وينفجر .

وفى باريس كنت وقحا مع إحدى العاهرات . عمل سيىء . كان الوقت أواخر الليل والدنيا برد حين جاءتنى . اتجهت نحوى وعرفت من أطراف اصابعها ومقدم أنفها أنها كادت تتجمد من البرد ، شعرت بالغثيان حين قالت لى : «تعال معى يا عزيزى» . دفعتها بعيدا . كانت بردانة وصريحة ووحيدة فى الشارع الواسع . ربما كان سيسعدها أن أضطجع معها فى سريرها البائس وأبعث الدفء فى أوصالها ، لكنى دفعتها عنى إلى مصرف الماء ، ونعتها بصفات قذرة ، اتساءل ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ ربما ألقت بنفسها فى نهر السين لأنها قبيحة ولم تجد زبونا تلك الليلة ، الأسوأ أنها لو كانت جميلة لما كنت قاسيا معها، ولما فكرت بمهنتها السيئة ، ولما دفعتها إلى مصرف الماء ، ولكنت سعيدا بأن أدفئ نفسى فى سريرها ولأشياء أخرى أيضا . الله يعلم ، ماذا كان سيحدث لو كانت جميلة . أمر مفزع أن تسىء إلى شخص لأنه قبيح ، فلا أحد قبيح ، يالها من مخلوق مسكين ، لعل الله يغفر لى قبل أربع وعشرين ساعة من موتى لأنى دفعت تلك العاهرة المسكينة الصريحة المتجمدة من البرد فى ليل شوارع باريس الواسعة الخالية من الناس حيث لم تأمل فى عاشق سواى ، فليغفر الله لى كل خطاياى ، فلا أستطيع التخلص منها ، فلا شىء تفعله يمكن أن تتخلص منه ، وحتى اللحظة الأخيرة سأظل أسمع الصرخات الباعثة على الشفقة لهذه الفتاة البائسة ، تتهمنى ، وأرى عينى

الضـــابط العـــاجزتين كعيـــنى الكلب ، ورتبه التى تثقل كتفيه الغلاميين ، تلاحقنى .

لو أستطيع البكاء ؟ لا أستطيعه مع كل هذه الأفعال الشريرة التى تسبب لى الألم وضيق الصدر والخوف ولكن ليس الدموع . هناك رجال كثيرون يستطيعون البكاء ، أنا وحدى لا أستطيع ، فليمنحنى الله الدموع . هذه الأفعال الشريرة التى تندفع إلى الذاكرة هى جزء صغير من خطاياى ، هناك الكثير منها لا أستطيع تذكره ، لقد احتقرت وكرهت ولعنت فى نفسى الكثير من الناس ، حتى لقد كرهت الرجل الذى قال «عمليا لقدكسبنا الحرب» ، لكنى أجبرت نفسى على الصلاة من أجله لأنه كان بهذه الدرجة من الغباء ، كما يجب أن أصلى لمن قال «سيجعلونهم يرون النجوم فى عز الظهر» ولكل أولئك الشباب الذين غنوا الأناشيد بكل ذلك الحماس ، لأنى كرهت ذلك الحشد الكبير فى القطار الذى كان يغنى «من الخير أن تكون جنديا» و «ألمانيا اليوم وغدا كل العالم» ، وأكره كل الرجال فى هذا القطار المزدحـــم ، وكل اولئـــك الذين تحتـــك كتفى بأكتافهم فى الثكنات .. كل تلك الثكنات .

صاح صوت من الخارج «أزف الوقت» . عاد الأشقر والجندى الآخر ، وأطلق القطار صفارته وتحرك . قال «ويلى» : الحمد لله .

ومع ذلك كان القطار متأخرا جدا . فالساعة الثالثة والنصف صباحا ، وسيصل إلى لفوف بعد ساعتين على الأقل ، بينما القطار المدنى سيتحرك فى الخامسة .

قال «ويلى» وقد حسبها «لا يزال الأمر جيدا . سنقضى يوما كاملا فى لفوف» وضحك ..

كان متشوقا جدا للحديث عن لفوف ، يمكن للمرء أن يدرك ذلك من نبرة صوته ، لكن لم يسأله أحد سؤالا واحدا ، أو أراد أحد أن يستمع إلى تجربته هناك . كانت الثالثة والنصف صباحا ، والبرد يعم كل شئ تحت سماء بولندا السوداء ، والجميع متعبون ، يفكرون بالكتيبتين اللتين ألقى بهما بسرعة فى مرجل عند تشير نوفتسى .

وعلا الصمت ، إلا من ضجة القطار الرتيبة التى ظلّلت قلقهم وجلبت لهم النعاس بصوتها المتواتر ، وكأنهم جمع من أطفال مساكين شاحبين جائعين مخدوعين ، مهدهم القطار وصوته أغنية نومهم .

نام الأشقر بعمق ، فقد لسعه البرد فى الخارج ، وغلفه هواء الممر الفاسد كحمام دافئ دفعه للنوم . كان «ويلى» مستيقظا ، ويمكن للمرء أن يسمعه بين حين وآخر يرفع زجاجة الفودكا ويأخذ جرعة منها ، لاعنا شيئا ما بين كل جرعتين ، وحين يشعل عود ثقاب ليدخن سيجارة ، يسقط الضوء على وجه أندريا ، ويراه «ويلى» مستيقظا تماما ، لكن الأمر العجيب أنه لم ينبس بكلمة .

أراد أندريا أن يصلى ، أن يتلو كل الصلوات التى يعرفها ، ثم بعض الصلوات التى يؤلفها ، وبعد ذلك يحصى كل الأشخاص الذين سيصلى من أجلهم ، لكن من السخف أن يعدهم واحدا واحدا ، عليه أن يصلى لكل من فى العالم ، وهناك مليارات منهم ، أربعون مليونا فى فرنسا ، يجب أن يصلى للمليارين جميعا ، ليقل ببساطة «كل الجنس البشرى» ، أو ليقل «للجميع» بسبب كسله ، فذلك سهل جدا . فى البداية لابد من تصفية الحساب مع أفراد بعينهم ، أولا أولئك الذين أساءوا إليهم ليحول سيئته إلى حسنة . فليبدأ بأيام المدرسة ثم العمل ، فحياته فى الثكنات ، فالحرب وكل ما حصل فيها .

فكـــر فى عمـه الذى كان يقول إن سنوات الخدمة فى الجيش هى أسعد سنوات حياته ، كان متحمسا للجيش وقد كرهه بسبب ذلك . فكر فى والديه اللذين لم يعـــرفهما قط . ثم فى «بول» الذى سينهض بعد قليل ليتلو القداس ، وتلك ثالث مـــرة منذ غـادره . لقد فـهمـه حين صـاح «سأموت قريبا» ، لابد أنه فهم، وسيقيم قداسا من أجله صباح الأحد قبل ساعة ، أو بعد ساعة من موته . لعل بول يذكر الآخرين أيضا ، من هم فى المأزق نفسه ، مثل الجندى الأشقر أو من فقدوا زوجاتهم مثل «ويلى» ، أو الذين ينشدون الأناشيد ، أو مثل الذى قال «عمليا كسبنا الحرب».

لم يعد أندريا يفكر بالعينين فى هذا الصباح المتعب البارد تحت سماء جاليسيا المظلمة الكئيبة ، كان متـأكدا أنهم الآن فى جاليسيا بالقرب من لفوف العاصمة . قال لنفسـه «لابد أنى فى وســط الشبكة التى ستلتقطنى . من المضحك أن يفكــر المرء أن «جاليســيا» هى آخــر مقاطعة سيراها فى حياته . لقد تقلصت «قريبا» إلى لا شئ . إنها تعـنى الآن أربعا وعشـــرين ساعة وعدة كيلو مترات قليلة .. وقطعنا أكثر من ســتين كيلو مترا فى جاليســيا ، حياتى تقلصـت إلى مئة وعشـــرين كيلو مـترا ، ذلك يجعــل المرء يفكر بنصل سكين يتحرك ببـــطء على قـــدمين خفيتين مثــل ثعـبان أو أم أربعة وأربعين .. كيف سيحدث الأمر ؟

بطلقة ؟ أو بطعنة ؟ أو بشـــئ يدوسنى ؟ أو أسحق حتى الموت فى عربة قطار محطمة ؟ هناك طرق كثيـــرة للمـــوت ، يمكن للمرء أن يموت بأن يطلق عليه شاويش الرصاص لأنه رفض أن يخضع ويصبح كالجندى الأشقر ، على كل حال، كيفما مات ، فسيقول الخطاب «مات من أجل ألمانيا العظمى» ، لابد أن أصلى حتى لرجال المخفر فى المســتنقعات فى ســيفاش .. حتما .. حتما .. صوت

القطار تاك .. تاك .. تراك.. تاك - تاك - تراك - من المحزن أن يقص الإنسان .. وراح فى النوم .

★★★

استيقظ فى لفوف ، وجد نفسه فى محطة هائلة مؤطرة بمشغولات حديدية سوداء ، ومليئة بلوحات إرشاد بيضاء قذرة ، وعلى لوحة فى المنتصف مكتوب بحروف سوداء على خلفية بيضاء ، الاسم المميت «لفوف» . قال لنفسه : هذا هو لوح القفز الخاص بى . لا يصدق أنه وصل ، لكنه هنا ، ولفوف - أهم مدينة فى جاليسيا - مكتوبة بالأبيض والأسود ، «لفوف» بالفعل ، ذلك يعنى أن هناك ستين كيلو مترا باقية ، ضاقت الشبكة ، ستون كيلو مترا ، أكثر أو أقل ، ربما عشرة ، فالأمر سيحدث بين لفوف وتشيرنوفتسى ، وقد يعنى ذلك كيلو مترا واحدا بعد لفوف ، فالمسافة إلى الهدف لا يمكن حسابها بدقة ، لكنى أقدرها فى حدود ضيقة .

قال «ويلى» وهو يجمع أشياءه : أنت نوام رائع ، توقفنا مرتين بعد أن نمت ، وكاد يصيبك الدور فى الحراسة ، لولا أنى قلت للشاويش إنك مريض ، فتركك تنام .. والآن تستيقظ !

كانت العربة فارغة بالفعل . والأشقر على الرصيف بصندوقه وحقيبة الطيران الخاصة . بدا غريبا أن يسير على رصيف فى محطة لفوف الرئيسية . كانت الساعة الحادية عشرة صباحا ، وكان جائعا ، ولم تكن له شهية لأكل السجق البارد ، يريد خبزا وزبدا وشيئا ساخنا ، لم يتناول وجبة ساخنة منذ وقت طويل ، قد يتناول واحدة الآن ، وتبع «ويلى» والأشقر .

من الغريب أن أول ما يخطر على باله فى «لفوف» هو وجبة ساخنة ، وذلك قبل ١٤ أو ١٥ ساعة فقط من موته . ضحك ، فالتفت نحوه الآخران بعيون متسائلة ، أحمر وجهه وتجنب نظراتهما .

وصلوا الحاجز حيث يقف حارس بخوذة معدنية ، ولأنه كان آخر الثلاثة فقد قال له الحارس «غرفة الانتظار للرتب الأخرى على الشمال» .

كان «ويلى» ساخطا ، وبعد أن تخطوا الحاجز ، وقف فى وسط صالة المحطة ، أشعل سيجارة ، وقدم مشهدا يقلد فيه الحارس ، قائلا بصوت عال «غرفة انتظار الرتب الأخرى على الشمال . يرضيهم تماما لو دخلنا الاصطبل الذى أعدوه لنا» .

نظر إليه رفيقاه بفزع ، لكنه ضحك وقال : «دعونى أتولى القيادة يا رفاق ، لفوف لعبتى ، يا إلهى .. غرفة انتظار ! .. والمكان يعج بالبارات والمطاعم» .

وطرقع بلسانه «وبعضها على الطراز الأوربى» ، وكررها بسخرية .

إن لحيته تنمو بسرعة غير عادية ، فقد بدا وجهه مشعرا ثانية ، ويحمل التعبير البائس الحزين السابق .

توقف عن الكلام ، وعبر بوابة الخروج يتقدم الآخرين ، ودون أن ينطق عبر ميدانا كبيرا يموج بالناس ، وفى لحظات وجدوا أنفسهم فى شارع جانبى ضيق مظلم ، على ناصيته تقف سيارة أجرة متداعية ، وكأنه حلم قد تحقق ، فقد كان «ويلى» يعرف السائق ، ونادى «ستانى» فخرج من مقعد السائق بولندى عجوز نعس قذر ، تعرف على «ويلى» بابتسامة . ذكر «ويلى» اسما بولنديا ، وعلى الفور كان الثلاثة يركبون العربة بحقائبهم . سارت بهم فى شوارع لفوف التى تشبه شوارع المدن الكبرى فى جميع انحاء العالم . شوارع واسعة أنيقة ، وشوارع مكسرة ، وشوارع كئيبة ، وبيوت بواجهات صفراء على الجانبين ، بدت كأنها ميتة ، وكثير من الناس .

كان «ستانى» يقود بسرعة ، وبدا كل شئ كالحلم ، وبدت «لفوف» كأنها تنتمى

لـ «ويلى» ، ساروا فى شارع واسع كالذى تجده فى كل مدينة كبيرة لكنه ذو طابع بولندى . توقف ستانى ، وناوله «ويلى» الأجرة ، ورأى أندريا أنها خمسون ماركا . وابتسم ستانى ابتسامة رضى عريضة ، وساعدهم فى حمل الحقائب إلى الرصيف . وفى دقائق كانوا يسيرون عبر حديقة جرداء فى ممر طويل معتم يقود إلى منزل بواجهة متصدعة . فكر أندريا أنه أحد القصور الملكية التى يعود تاريخها إلى الأيام الخوالى للأسرة النمساوية الحاكمة ، وربما سكنه ضابط رفيع فى وقت الفالس الڤيينى أو قوميسور ، من يعرف ؟ إنه واحد من تلك البيوت النمساوية قديمة الطراز التى يجدها المرء هنا وهناك فى البلقان والمجر ويوغسلافيا وبالطبع جاليسيا . مرت هذه الأفكار فى ذهن أندريا للحظة قصيرة جدا قبل أن يسيروا فى الممر الطويل المظلم الرطب .

فتح «ويلى» ، بابتسامة رضى ، بابا عاليا واسعا بياضه غير ناصع ، يقود إلى مطعم بكراس مبطنة ، وموائد منسقة مزينة بالزهور . زهور خريفية مما توضع على القبور ، هذه ستكون آخر وجبة لى قبل إعدامى . قادهما «ويلى» إلى ركن يمكن أن يسدل عليه ستار ، فيه مائدة معدة تحطيها الكراسى . كل شئ كالحلم . وتساءل أندريا فى سره : هل كان يقف حقا قبل نصف ساعة فى محطة سكة حديد مكتوب عليها لڤوف ؟

نادى «ويلى» على الساقى ، فظهر ساق بولندى أنيق المظهر ، يلبس حذاء لامعا جدا ، وحليق الذقن تماما . ابتسم بتزلف : بعض البقع على ردائه جعلته غير كامل الأناقة . ومن يتضايق من هذه البقع ؟ حذاؤه كان كحذاء الأرشيدوق يلمع كالمرآه ، ووجهه ناعم كوجه باخوس .

قال «ويلى» : جورج .. السيدان يودان الاغتسال والحلاقة . بدا الكلام كالأمر ، وبالفعل كان أمرا . ولم يتمالك أندريا نفسه من الضحك وهو

يتبع الساقي المبتهم ، شعر كأنه دُعى للغداء مع جدة متميزة عتيقة الطراز ، أو مع عم يقول «الولد غير الحليق الذى لا يغتسل لا يسمح له بدخول غرفة الطعام» .

كانت دورة المياه رحبة ونظيفة . أحضر جورج صفائح من الماء الساخن قائلا : إذا رغب السادة بصابون تواليت فلدينا بعض من أفضل الأنواع بخمسة عشر ماركا للقطعة .. ؟

قال أندريا : هاتها .. بابا سيدفع كل شئ .

أحضر جورج الصابون ، وكرر مبتسما «بابا سيدفع» .

تعرى كل منهما حتى وسطه ، صبن جسده وذراعيه ، واغتسل ونشف نفسه بسعادة .

كانت بشرتهما المصفرة الدبقة تحتاج هذا الحمام .

قال أندريا : الحمد لله أن أحضرت جوربا نظيفا ، سأغسل قدمى . ثم ارتديه ، لابد أن الجوارب غالية فى لفوف .. ثم لماذا اترك جوربى النظيف لرجال المقاومة ؟

غسل قدميه ، وضحك من الأشقر الذى بدا عليه الاندهاش ، كما لو أنه ليس متأكدا إذا كان يقظا أو نائما .

كم هو جميل أن تكون نظيفا حليقا وناعما كبولندى ، والمؤسف أنه بحلول الغد سينمو شعر الذقن ثانية . لم يكن الأشقر فى حاجة إلى حلاقة ذقنه ، فهى لم تنبت بعد وليس لديه إلا آثار شعر فوق شفته العليا ، ولأول مرة تساءل أندريا فى نفسه عن عمره وهو يراه يرتدى قميصا أنيقا نظيفا بياقة مدنية حقيقية ، قميصا كان أزرق غامق اللون وأصبح الآن أزرق فاتحا . زرر قميصه وارتدى زيه الرمادى الكالح وعليه شارة الجريح . هذه الشارة لابد أنها جاءت من مصنع العائلة

للأعلام . وعاد ليتساءل فى نفسه عن عمر الأشقر ، ذقنه لم تنبت ، لكن بول لم تنبت ذقنه ومع ذلك كان فى السادسة والعشرين . هذا الشاب إما أنه فى السابعة عشرة وإما فى الأربعين . له وجه عجيب ، إنه على الأقل فى العشرين ، فهو وكيل عريف ، ولابد أنه التحق بالخدمة منذ سنة أو سنتين ، وهو فى التاسعة عشرة أو العشرين ..

ارتداء الزى . الياقة مزررة ، يشعر المرء بالتحسن حين يكون نظيفا وأنيقا ثانية .

شقا طريقهما إلى الركن ، كان فى المطعم قلة من الضباط كان عليهما أن يحيوهم ، أمر مزعج وسيء للغاية أن تضطر لمثل هذه التحية ، وسعدا بالعودة إلى مكانهما .

قال «ويلى» الذى كان يدخن السيجار ويشرب النبيذ :

– الآن يمكن النظر اليكما بسعادة يا أطفال .

وكانت المائدة قد غطيت بالفعل بوفرة من الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين . وخدمهم «جورج» بصمت ، أحضر فى البداية شوربة ساخنة رائقة . تلا أندريا ، طويلا ، صلاة المائدة فى سره ، وترك الآخرين يسبقانه إلى الطعام ، لكن لدهشته ظلا هادئين . بعد الشوربة كان هناك شئ مثل السلاطة الروسية – قطع صغيرة جدا مع بعض المشهيات كما يحدث فى فرنسا . تبع ذلك أنواع من اللحم ، أولا شريحة لحم بقر ألمانى ، ثم طبق شكله عجيب .

سأل «ويلى» بوقار مضحك : ما هذا ؟

ابتسم جورج قائلا : قلب خنزير .. أحسن قلب خنزير .

ثم جاءت كوستليته جيدة كثيرة العصارة .

فكر أندريا : «وجبة ممتازة قبل الإعدام» ، صدم حين وجد نفسه يستمتع بها عار عليه . ينبغى أن يكون زاحفا على ركبتيه يصلى ويصلى طوال اليوم ، بدلا من أن يجلس هنا يأكل قلب خنزير . ثم جاءت الخضراوات ، البسلة والبطاطس وطبق آخر من اللحم ، وصلصة منعشة من اللحم والخضار مبهرة بالقرفة ، وسلطة خضراء ، مع نبيذ طوال الوقت ، كان «ويلى» يصبه بأبهة ويضحك كثيرا .

قال : ستطير نقود الرهن كلها اليوم .. رهن بيت لفوف . وشربوا الكئوس نخب رهن البيت .

بعد ذلك جاءت أصناف كاملة من الحلوى ، مثلما يحدث فى فرنسا ، أولا كعكة «القستر» ثم كعكة غارقة فى الفانيليا ، وواصلوا شرب النبيذ ، لكنه ، هذه المرة ، نبيذ حلو جدا . ثم أحضر الساقى تورتة صغيرة محشوة بالشيكولاتة والكريمة ، لم ينبس أحد بكلمة ، وبدا الأشقر وكأنه مازال يحلم ، كان من المؤلم مراقبته وهو يفتح فمه ويملؤه ويمضغ ويشرب مثل آلة .

وأخيرا ، كانت الجبنة ، بالضبط مثلما فى فرنسا . اللعنة . خبز وجبن وتلك نهاية الوجبة . فالجبنة تجعل المعدة تستقر . وشربوا معها نبيذ «سوتيرن» الفرنسى الأبيض .

وتذكر أندريا .. ألم يشرب «السوتيرن» فى «لاتريبورت» على منحدر يشرف على البحر ؟ كان طعمه مثل اللبن والنار والعسل . ذلك المساء كنت أرى عينيها ، تقريبا بدرجة القرب ذاتها التى رأيتها فيها فى «إميان» ، إنه النبيذ نفسه ، إن له ذاكرة قوية بالأشياء التى تُتذوق ، أعاد النبيذ إلى ذاكرته «لاتريبورت» وفمها وشعرها وعينيها ، إن أكل الخبز والجبن وشرب النبيذ الأبيض مناسب تماما .

قال «ويلى» بمرح «حسنا يا رجال : هل استمتعتما بالتموين ؟»

بالتأكيد لقد فعلوا ، أكلوا كثيرا لكن ليس لدرجة التخمة ، إذا ملأ المرء بطنه وتناول النبيذ فإنه يكون فى حالة حسنة .

وتلا أندريا صلواته ، واستغرق وقتا طويلا ، بينما الآخران يدخنان ، وهو يقدم الشكر لله برأسه ، ويديه وكوعيه على المائدة .

فكر ، الحياة جميلة ، أو كانت جميلة على الأقل ، قبل موته بساعات يدرك أن الحياة جميلة ، لقد تأخر الوقت جدا . كان جاحدا بفضل الله ، أنكر وجود السعادة الإنسانية والآن يعرف أن الحياة كانت جميلة ، وشعر بالحرج والخوف والندم ، لقد كانت حياته تعيسة ، حياة محبطة كما يسمونها ، قاسى فى كل ثانية لبس فيها هذا الزى الكئيب ، لقد دمروه بثرثراتهم المميتة فى الجيش ، ونزف دمه بالفعل على أرض ميدان المعركة ، جرح ثلاث مرات ، أولا فى «إميان» ثم فى «تيراسبول» وأخيرا فى «نيكوبول» ، ولم ير شيئا سوى الدم والقذارة والخراء ، ولم يشم إلا رائحة التراب ، ولم يسمع سوى أنات البؤس والحديث الداعر . عرف الحب الإنسانى الحقيقى لجزء من الثانية فقط ، حب رجل لامرأة ، فقط لعشر الثانية ، وذلك جميل ، والآن بقيت على موته ساعات ، ويدرك أن الحياة جميلة ، لقد شرب «السوتيرن» على منحدر يشرف على البحر فى «تريبورت» وفى «كابو» ، وجاءته صورة حبيبته هناك ، وجلس فى مطاعم مكشوفة في باريس فى البوليفار وشرب كثيرا من أجود أنواع الأنبذة الصفراء الفاخرة ، وكانت صورة حبيبته حاضرة معه هناك ، ولم يكن عليه أن يبحث عنها وسط أربعين مليون فرنسى ليكون سعيدا . ظن أنه لم ينس شيئا ، لكنه نسى الكثير ، بل نسى كل شئ . وها هو الآن قد تناول هذه الوجبة الفخمة بقلب الخنزير والجبن ، وذكره النبيذ أن الحياة حلوة قبل موته بساعات .

قال «ويلى» بصـوت أجـش : «اشـرب يا رفيـق ..» ، ورفع أندريا كأسـه وشرب . كانت هنـاك بقية من نبيذ فى زجاجة مغمورة بالثلج ، ورفع كأسه ليملأها ثانية .

لا يوجد شئ آخر يفعله فى لفوف سوى الأكل والشرب فى هذا القصر نصف الخرب فى قاعة المآدب الكبرى ، حيث كانت تقام الولائم الفخمة وحفلات الرقص منذ زمن طويل – منذ متى يا ترى ؟ ٢٨ سنة أو ٢٩ ، لم تكن هناك حرب ، وكانت هذه الأرض هى النمسا ثم أصبحت بولندا ومن ثم روسيا ، والآن هى جزء من ألمانيا العظمى ، استطيع أن أتخيل الحفلات التى كانوا يقيمونها هنا ، حفلات رقص كل اثنين معا ، يرقصون الفالس الرائع ، ثم يخرجون إلى الحدائق الكبيرة وراء القصر ، والضباط يقبلون الفتيات ، والأكبر منهم يقبلون المتزوجات والمضيف يتظاهر بأنه لا يرى شيئا .

قال «ويلى» : اشرب يا صديق .

كان أندريا على استعداد لشرب المزيد ، لكنه فكر أن الوقت يمر ، كم الساعة يا ترى ؟ لقد غادروا المحطة فى الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف ، لابد أنها الآن الثانية أو الثالثة . بقى ١٢ ساعة ، لا ، إنه مخطئ ، القطار لن يغادر المحطة قبل الخامسة صباحا .. كم سيستغرق بعدها للوصول إلى .. هناك ؟ عادت «قريبا» هذه مضببة ثانية ، لن يبعد الموقع عن لفوف بأكثر من ٦٠كم ، يقطعها القطار فى ساعة أو ساعة ونصف ، ذلك يعنى السادسة والنصف صباحا ، ويكون النهار قد انبلج آنذاك .

ثم أدرك فجأة ، وهو يرفع كأسـه إلى شـفتيه ، أنه سـيموت فى الظلام . ربما هى ٤٠ كم ، يقطعها القطار فى ثلاثة أرباع السـاعة ، فى ذلك الوقـت يكون الفجر وليـس هناك ضـوء ، هو ذاك ، ستكون السادسة إلا ربعا على الأكثر ،

ذلك مؤكد . غدا الأحد ، وبول يبدأ اسبوعا آخر في الخدمة ، وخلال الاسبوع التالي وهو يقدم قداس الساعة السادسة سأكون ميتا ، حين يصعد إلى المذبح ويتلو صلواته سأكون في مكان ما بين لفوف .. و .. لابد أن أنظر إلى الخريطة لأرى المكان الذي يبعد عن لفوف أربعين كيلو مترا .. أين الخريطة ؟ تطلع فرأى الأشقر يغط في النوم في كرسي مريح ، كان تعبا بعد نوبة حراسته ، بينما كان «ويلي» مستيقظا ، ثملا ، ويبتسم بسعادة ، لكن الخريطة في جيب الأشقر .

مازال هناك وقت ، أكثر من ١٢ ساعة ، وربما ١٥ ، في هذه الساعات لابد أن يعمل الكثير ، يصلي ويصلي ، لا مزيد من النوم تحت أي ظرف . كان سعيدا لأنه عرف بالضبط متى ستأتي النهاية ، «ويلي» يدرك أيضا بأنه سيموت . والأشقر يريد أن يموت . حيواتهم انتهت ، ودنا الأجل ، والموت يهز الحياة القليلة الباقية .

قال «ويلي» : حسنا يا رفاق .. أسف .. لابد أن نتحرك الآن .. لقد قضينا وقتا ممتعا هنا .. أليس كذلك ؟

دفع الأشقر فاستيقظ ، ومازال يبدو كأنه يحلم ، كان سارح النظرات ، ولم تعد عيناه تبدوان لزجتين مفزعتين ، بدتا طفوليتين ، ربما بسبب الطعام الجيد الذي تناوله ، والاحلام التي أضفت عليه السعادة ، فالفرح مثل الألم يغسل الإنسان .

قال «ويلي» : يجب أن نذهب الآن لنختم أوراقنا لركوب القطار لكني لن أخبركما بالسر .

كان قلقا قليلا لأن أحدا لم يسأله .

نادى على «جورج» وأعطاه مبلغا يزيد على أربعمائة مارك ، مضافا إليه بقشيش ملكي ، وأمر بعربة أجرة .

ربطوا أحزمتهم ، وحملوا متاعهم ، ولبسوا كاباتهم ، ومروا بالضباط والمدنيين

وبذوى الازياء البنيـة ، بدت الدهشـة على الضـبـاط ورجـال الإس إس .S.S ، بأزيائهم البنية، لكنه مشهد تراه فى أى بار أو مطعم فى أوربا ، غادروا البيت النمساوى العتيق مثل عباد يغادرون معبدا مسكونا بمعبود صارم ، عبروا الحديقة إلى الشارع ، وتطلع أندريا إلى الواجهة المتصدعة ثانية ، وفكر برقصة الفالس قبل ركوبه السيارة .

قال «ويلى» : سنذهب الآن إلى مكتب الأختام الذى يفتح فى الخامسة .

وقال أندريا للأشقر : أيمكننى إلقاء نظرة أخرى على الخريطة ؟

وقبل أن يخرجها من جيبه ، توقفت السيارة . لم يسيروا إلا مسافة قصيرة فى الشارع الواسع الكئيب . كان هناك فى الخلفية الريف على اتساعه وبعض الفيللات تقف وحيدة .

بدا المنزل الذى توقفوا عنده كبيت بولندى ، نصف سقفه مسطح ، وواجهته صفراء قذرة . وكانت نوافذه المرتفعة الضيقة مغلقة ومشققة طوليا بخطوط رفيعة رمادية ، وذكّر مظهرها الهش ، أندريا ، بفرنسا .

مكتب الأختام كان منزلا بولنديا ، وخمن أندريا على الفور أنه بيت دعارة ، الطابق الأول كله محجوب بصف من أشجار الزان ، وحين ساروا عبر الحديقة ، لاحظ أندريا أن نوافذ الدور الأرضى ليست مغلقة ، ورأى ستائر بنية غامقة بلمسة حمراء بلون الغرفة تقريبا .

قال «ويلى» ضاحكا : هنا يستطيع المرء الحصول على جميع أنواع الأختام فى العالم . كل ما يحتاجه المرء المعرفة وقليل من الثقة . وقفوا فى المدخل مع متاعهم، شد «ويلى» الجرس ، ومرت فترة قبل أن يسمعوا صوت خطوات فى البيت الغريب الصامت . تأكد أندريا أن هناك من يراقبهم . استمر الفحص طويلا وأصبح «ويلى» قلقا ، وقال بانزعاج : اللعنة .. ليس عليهم أن يخفوا شيئا قبل فتح

الباب .

وفتح الباب ، واتجهت امرأة عجوز إلى «ويلى» بذراعين مفتوحتين ، وابتسامة حلوة على شفتيها ، وقالت بصوت ودود : «لم أعرفك فى البداية .. ادخل» . ثم أشارت إلى أندريا والأشقر: «هما رفيقاك بلا شك .. إنهم صغار جدا على منزلنا»، وهزت رأسها معترضة .

دخل الثلاثة ، ووضعوا أشياءهم فى ركن من الصالة .

- نريد أن نختم أوراقنا للقطار الذى يغادر فى الخامسة من صباح الغد .. القطار السريع .. أنت تعرفين ..

نظرت المرأة بشك إلى الشابين ، وبدت عليها العصبية ، من الواضح أن شعرها المتموج باروكة . وجهها المستطيل حاد الملامح ، وعيناها الرماديتان الرطبتان مظللتان بتحفظ ، كانت ترتدى فستانا أنيقا أحمر وأبيض يصل إلى العنق حتى لا يفضح بشرتها المتجعدة .

قال أندريا لنفسه : «كان عليها أن ترتدى ياقة مستديرة عالية كما يفعل الجنرالات» .

قالت بتردد : «حسنا جدا .. و.. و..» .

قال «ويلى» : وشيئا لنشربه لو سمحت .. وفتاة من أجلى .. وماذا عنكما ؟

قال أندريا : لا أنا لا أريد فتاة ..

أما الأشقر فقد أحمر وجهه ، وعرق من الخوف .

فكر أندريا بأن الأمر مزعج بالنسبة للأشقر لكن من الأفضل أن يأخذ فتاة . وفجأة سمع موسيقى ، ندفة من الموسيقى ، شخص ما لابد أنه فتح غرفة فيها راديو لمدة ثانية فسمع قطعة موسيقى قصيرة ، مثلما يفعل المرء وهو يدير مؤشر المذياع باحثا عن محطة يستمع إليها ، فيسمع موسيقى جاز أو موسيقى عسكرية

أو صوت مذيع ثم ندفة من شوبرت . شعر أندريا كأن شيئا ما ضرب قلبه وفتح بوابة سد سرية فى كيانه . تمايل وشحب وجهه واستند على الحائط . يدفع عشر سنوات من عمره ليسمع أغنية كاملة لشوبرت ، لكن ليس لديه إلا اثنتا عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة ، فلابد أنها الخامسة بعد الظهر ، قالت المرأة ، وكان فمها الذى يراه الآن كريها ، فما صغيرا بشفتين رفيعتين، شرها للنقود كفتحة حصالة : «أتعنيان انكما لا تريدان شيئا ؟

لقد صدمتها الفكرة .

تمتم أندريا «موسيقى .. أيمكن أن ندفع لسماع الموسيقى ؟» .

نظرت اليه بتعبير مرتبك، وترددت ، لقد باعت كل شىء تقريبا، بطريقة أو بأخرى .. أختام وتصاريح ، فتيات ومسدسات .. ذلك الفم ذو الشفتين الرفيعتين اعتاد أن يتعامل فى كل أنواع البضائع .. لكن لم تكن الموسيقى بينها .

بدأت كلامها مرتبكة : أنا .. نعم بالطبع . الموسيقى .

فمهما كان الوضع ، من الخير أن تبدأ بكلمة نعم ، فالمرء يمكنه أن يقول لا .. دائما فى النهاية ، لكن قولها فى البداية يجعل من الصعب اتمام أى عمل .

قال أندريا الذى يقف الآن منتصبا : هل تبيعيننى موسيقى ؟

أجابت بابتسامة : ليس بدون فتاة .

نظر أندريا إلى ويلى بتعبير مؤلم ، فهو لايعرف التكلفة ، موسيقى مع فتاة ، والعجيب أن ويلى قرأ تساؤله بشكل صحيح ، وصاح :

«تذكر الرهن يا صديق. فليحيا رهن لفوف.. يمكنني تحمل كل النفقات» ..

قال أندريا للمرأة «سآخذ موسيقى وفتاة » .

فتح أحد الأبواب ، وتهادت منه ثلاث فتيات ، احداهن حمراء الشعر والأخريان سمراوان .

كن ينتظرن فى الممر ضاحكات وهن يستمعن الى المحادثة من وراء الباب.

عرفت ذات الشعر الأحمر «ويلى» وعانقته، وقالت للمدام :

«لماذا لا تعطيه مغنية الاوبرا ؟» . ضحكت الفتاتان، واتجهت احداهن نحو الاشقر ووضعت يدها على ذراعه. شهق حين لمسته ، وارتجف كريشة فى مهب الريح» . أمسكت به وسكنته قائلة :

« لاتخف يا حبيبى .. لا تخف» . وسعد أندريا بانهيار الاشقر فقد يفيده ذلك ، أراد بدوره أن يبكى ، وكاد يغص بالدموع، أخيرا فهو يستطيع البكاء، لكنه لا يريد أن يفعل ذلك أمام تلك العاهرة ذات الفم الذى يشبه فتحة الحصالة ولا تفكر إلا بالنقود، ربما يبكى حين يكون مع فتاة الاوبرا .

قالت السمراء الأخرى بنزق : «إذا أراد موسيقى .. فسأرسل له مغنية الأوبرا» .

واستدارت وذهبت، حين فتحت الباب، سمع أندريا الموسيقى ثانية، لم تكن لشوبرت هذه المرة، بل شيئا لفرانز ليست، موسيقاه جميلة وقد تجعله يبكى بعد ثلاث سنوات ونصف بلا دموع .

وضع الاشقر رأسه على صدر الفتاة السمراء وبكى ، وحسنا فعل ، فلم يكن هناك صدى لمستنقعات سيفاش فى بكائه، أو حتى خوف، وإن كان هناك كثير من الألم .

قالت ذات الشعر الأحمر، والوجه المرح، الى ويلى الذى كان يحيط خصرها بذراعه: احضر له مغنية الاوبرا، إنه جميل.. أراه حلوا مع موسيقاه. وأرسلت له قبلة من يدها . إنه صغير وجميل.. اشتر له يا صديقى القديم مغنية الاوبرا وبيانو..

قال ويلى بصوت اجش: سنصرف الرهن كله .

صحبت العجوز أندريا لتصعد به عدة سلمات ، ثم لتعبر ممرا على جانبيه عدة غرف مغلقة، ودخلا غرفة مريحة بها عدد من الكراسى وأرائك

وبيانو.

قالت : هناك بار صغير للحفلات الخاصة، الغرفة تكلف ستمائة مارك ومغنية الاوبرا مائتين وخمسين لليلة، وذلك غير ما تستهلكه من طعام وشراب وخلافه. وكما تعرف فإن مغنية الاوبرا هو لقب الفتاة .

تعثر اندريا بكرسي، اومأ برأسه ، وصرفها بإشارة ، وسعد بمغادرتها، سمعها تنادى اولينا .. اولينا.. كان يجب أن يستأجر البيانو فقط .

وارتعد لفكرة وجوده في هذا المكان. جرى الى النافذة فى يأس، وأزاح الستائر.. مازال الوقت نهارا ، فلماذا هذه الظلمة المصطنعة؟ لن يرى ضوء النهار ثانية ، فلماذا يخفيه بالستائر ؟ ، مازال يمكن رؤية الشمس فوق التلال ، واشعتها الدافئة المعتدلة تنصب على الحدائق والاسقف والفيللات . الآن موسم اقتطاف التفاح ، لابد أنه قد نضج فنحن في نهاية سبتمبر . رجالنا محاصرون في تشير كاس، والخياطون ذهبوا لقص ذلك الجيب ، كل شيء سيكون على مايرام، وهأنذا أجلس في نافذة لبيت دعارة في مكتب للأختام ولدى ساعات لأحياها ، كان يجب أن أقضيها راكعا على ركبتى أصلى، لكنى عجزت عن مقاومة هذا الفيضان المتدفق من البوابات، يدفعنى ويدفعنى الى الداخل، كان هناك فى صالة المدخل، إنه نصل سيف الموسيقى . ربما من الأفضل ألا أقضى الليل بطوله مع البيانو . فقد أُجن من السعادة، شيء جميل أن تأتى أولينا، مغنية الأوبرا. لقد نسيت الخريطة، سألت الأشقر أن يعطيها لى ، لابد أن أعرف تماما ما الذى يقع على بعد اربعين كيلو مترا من لفوف، ليست «ستانسلاف» لأنى لن أبلغها ، مكان ما بين لفوف وتشيرنوفتسى، كم كنت متأكدا حول هذه الأخيرة ، وكنت مستعدا على الرهان بأنى سأعيش لأراها ، على الأقل ضواحيها ، لكنى أعرف الآن أن الأمر سيقع فى مسافة لن تكون أبعد من ٤٠ كم من لفوف .

جفل بشدة حين سمع حفيفا خفيفا ، كما لو أن قطة تسللت الى الغرفة . كانت

مغنية الاوبرا تقف وراء الباب الذى أغلقته .

كانت صغيرة أنيقة لطيفة مهذبة الطلعة . شعرها الاشقر الجميل ينسدل بجديلتين على رأسها، تلبس شبشبا أحمر ، وفستانا اخضر فاتحا. حين التقت عيونهما ، مدت يدها الى كتفها عازمة خلع فستانها. صاح أندريا ، بحدة «لا» وندم لخشونة لهجته .

تذكر أنه ذات مرة صرخ فى امرأة ، ولم تبارحه الذكرى .

ألقت عليه نظرة دهشة أكثر منها نظرة حنق، وصدمها الألم فى صوته ، ردد أندريا بهدوء أكثر : لا . لا تفعلى ذلك .

اتجه نحوها ، ثم عاد وجلس، ثم نهض وقال : هل يمكن أن أدعوك «دو»؟

قالت برقة : نعم اسمى اولينا .

– أعرف . واسمى أندريا .

أشار الى كرسى بمسندين ، جلست وتطلعت اليه بتساؤل ممزوج بخوف ، اتجه نحو الباب وادار المفتاح بالقفل . جلس بجانبها ، ونظر اليها، لها أنف جميل لا قصير ولا مدبب ، تبدو للوهلة الأولى كداعرة ، لكنها تبعث فى المرء شعورا بالبراءة ، خليط من فساد وبراءة كراعيات فراجونارد، مع أنها تبدو بولندية ولها عنق مثلهن. ربما يفيده التدخين، ووضع سيجارة فى فمه، لم يجد كبريتا، نهضت وفتحت خزانة بأرفف مملوءة بالزجاجات والعلب ، تناولت علبة كبريت ، وقبل أن تعطيها له، كتبت شيئا على ورقة ، قائلة بصوتها الناعم : «يجب أن أسجل كل شيء.. حتى هذه » .

دخنا، ونظرا من النافذة على المشهد الذهبى بحدائق الفيللات سألها : هل أنت مغنية اوبرا ؟

قالت : يدعوننى كذلك لأنى درست الموسيقى ، ويظنون أن كل فتاة تدرس

الموسيقى لابد أن تكون مغنية اوبرا .

– اذن .. أنت لا تستطيعين الغناء ؟

– استطيع.. لكنى لم ادرس الغناء.. أغنى هكذا .. أنت تعرف ..

– وأى فرع فى الموسيقى درست ؟

قالت : البيانو : اردت أن أكون عازفة بيانو .

أمر غريب، لقد أراد ان يصبح عازف بيانو بدوره ، عذبه الم حاد فى قلبه كان حلم حياته أن يكون عازف بيانو، وهو يستطيع أن يعزف بشكل جيد بالفعل، لكن المدرسة كانت مثل قطعة رصاص تضغط عليه، وقفت المدرسة فى طريق حبه للموسيقى ، كان عليه ان يجتاز الامتحانات مثل كل فرد فى ألمانيا ، وإذا لم يفعل فلن يصل الى شىء. لا يستطيع دراسة الموسيقى إلا إذا أنهى دراسته، كان ذلك سنة ١٩٣٩ ، قضى ستة أشهر فى الخدمة العامة، واندلعت الحرب فى الوقت نفسه. كان ذلك منذ اربع سنوات، لم يلمس خلالها بيانو ، اراد أن يكون عازف بيانو وأن يحقق حلمه ، كما يحلم الآخرون بأن يصبحوا مدرسين مثلا ، كان البيانو بالنسبة له كل شىء، حبه الأول والأخير، والنتيجة لا شىء . أولا الشهادة الدراسية ، ثم الخدمة العامة.. وأخيرا هذه الحرب القذرة.

غص بالألم والاحباط ، ولم يشعر بمثل هذا البؤس من قبل. ربما من الخير له أن يقاسى ، فقد يمنحه الألم الغفران لوجوده فى بيت دعارة مع مغنية اوبرا تكلف مائتين وخمسين ماركا فى الليلة بدون الكبريت ، وبيانو يكلف ستمائة مارك، قد يغفر الله لى فأنا محطم بالبؤس . أكل ذلك لأنها تحدثت عن البيانو وعزفه؟ هذا الالم الذى يشعر به يكاد يبعث به الى الجنون ، ينزل فى حلقه مثل سم حارق ويندفع الى معدته لينتشر فى جميع اجزاء جسده . منذ نصف ساعة كنت سعيدا

لأنى شربت نبيذ سوتيرن وفكرت فى المنحدر فى تريبورت حيث اسرتنى العينان وعزفت لهما البيانو فى خيالى ، والآن يلفحنى البؤس هنا فى بيت دعارة فى صحبة فتاة جميلة يحسدنى عليها كل الجيش الألمانى .

يكاد يغمى على من البؤس لكنى سعيد بمعاناتى ، فقد تقودنى الى الأمل بأن يغفر الله لى لأنى لم أقض الساعات الأخيرة من حياتى راكعا اصلى ، لكنى أين يمكن أن اركع وأصلى دون أن يزعجنى أحد ؟

لا أعرف مكانا فى العالم يصلح لذلك . سأطلب من «أولينا» أن تراقب الباب حتى لا يدخل أحد، وسأجعل ويلى يدفع لها ٢٥٠ ماركا و ٦٠٠ مارك أخرى للبيانو دون حساب الكبريت، وسأعطيها زجاجة نبيذ حتى لا تشعر بالملل .

سألته «أولينا» بلطف : ما الحكاية ؟

لقد جفلت حين صرخ فيها قائلا «لا» ، نظر اليها وانتابته السعادة لمرأى عينيها الرمادتين الوديعتين الحزينتين .

شعر بأن عليه أن يجيب ، فقال : لا شيء . وكررها ثم بذل مجهودا كبيرا ليدفع الكلمات من فمه مملوءة بسم المعاناة :

– هل أنهيت دراستك للبيانو ؟

أجابت باختصار : لا .

من القسوة أن يسألها المزيد .

رمت عقب سيجارتها فى الطفاية المعدنية الكبيرة التى وضعتها على الأرض بين كرسييهما، وقالت بلطف ونعومة : هل أحكى لك ؟

قال : «نعم» . ولم يجرؤ على النظر اليها خوفا من عينيها الهادئتين الرماديتين.

قالت : كما تريد، وظلت صامتة لمدة دقيقة ، ثم رفعت رأسها وسألته : كم عمرك ؟ .

قال بهدوء : فى فبراير القادم كنت سأكون فى الرابعة والعشرين.

قالت : كنت ستكون !! لماذا لم تقل سأكون .. ؟

نظر اليها بدهشة ، تملك أذنا حساسة ! وأدرك فجأة أن عليه أن يخبرها بكل شيء ، ولا أحد غيرها سيعلم ، لابد أن يخبرها بأنه سيموت في الصباح قبل السادسة بقليل .

قال : أسلوب في الحديث . قولي لي ما هو المكان الذي يقع على بعد أربعين كيلو مترا من لقوف على طريق تشيرنوفتسي ؟

بدت الدهشة عليها، لكنها قالت : ستريج .

يا له من اسم غريب ! كان يجب أن اراها على الخريطة معنى ذلك أنه لن يبلغ حتى ستانسلاف أو كولوميا وسيقع الأمر قبل تشير نوفتسي بمسافة بعيدة ، ستريج ذلك هو المكان ، ربما لا يكون على الخريطة .

قالت : اذن ستبلغ الرابعة والعشرين في فبراير .. ذلك غريب .. فأنا أيضا سأبلغها في الشهر نفسه .

نظر اليها فابتسمت : نعم .. فلقد ولدت في ١٢ فبراير سنة ١٩٢٠ تلاقت عيونهما في نظرة عميقة طويلة ، مالت نحوه ، لكن المسافة بينهما كانت كبيرة، قامت واتجهت نحوه لتعانقه ، صدها قائلا :

– لا .. ليس ذلك .. لاتكوني نزقة .. سأخبرك بقصتي في وقت لاحق.. لقد ولدت في ١٥ فبراير ..

أشعلت سيجارة ، وأسعد اندريا اذ رآها لم تتأذ ، قال أندريا : كنت ستتحدثين عن نفسك .

قالت : نعم .. فنحن في العمر نفسه.. وذلك جميل.. أكبرك بثلاثة أيام .. أنا اختك.. ضحكت ربما اختك فعلا .

– حدثيني من فضلك .

قالت : ذهبت إلى الكونسرفتوار في وارسو.. أتريد أن تعرف مادرسته ؟

– نعم .

– هل تعرف وارسو ؟

– لا .

– إنها مدينة كبيرة .. وجميلة . كان الكونسرفتوار يشبه هذا المنزل.. لكن حديقته كانت أكبر.. بكثير.. كنا نذهب في الاستراحة بين الدروس لنتمشى في الحديقة الجميلة الكبيرة ، نتبادل الغزل . قالوا إني فتاة موهوبة جدا.. وألحقوني بفصل البيانو.. أردت في البداية أن أعزف على «الهاربيشورد».. لكن لم يكن هناك فصل لهذه الآلة. في امتحان القبول طلبوا مني عزف سوناتا قصيرة سهلة لبيتهوفن، عمل خطير.. فمن السهل إفساد هذه المقطوعات البسيطة أو أن تعزفها بوجدانية. من الصعب عزف هذه الاشياء القصيرة بشكل صحيح، إنه بيتهوفن. سوناتا كلاسيكية تقريبا ، من أعماله الاولى. وقد تختلط عليك بمقطوعة لهايدن، قطعة محيرة لامتحان قبول .. هل تفهمني ؟

قال أندريا ، وقد شعر بأنه على وشك البكاء : أفهم .

قالت : اجتزت الامتحان بجيد جدا.. اخذت دروسا وعزفت كثيرا.. ثم جاءت الحرب في خريف ١٩٣٩ . كان قد مضى على في الدراسة سنتان تعلمت فيهما الكثير وغازلني الكثيرون. أحببت القبل وكل ما يصاحبها . استطعت أن أعزف «فرانز ليست» و تشايكوفسكي بشكل جيد جدا... لم أكن ممتازة في عزف «باخ» على الرغم من أني وددت ذلك. وكنت جيدة في عزف شوبان، ايضا . كانت حديقة جميلة تلك التي تقع خلف الكونسرفتوار ، دكك وأجمات من شجر ، كنا غالبا ، نقيم حفلات رقص وموسيقى ، وذات مرة أقمنا حفلا موزاريا رائعا.. لقد اعتدت أن أعزف موزار بشكل جيد جدا.. ثم . جاءت الحرب ..

وانهارت فجأة .

نظـر اليـها اندريا مـتسـائلا.. وبدا الـغـضـب على هذه الفتـاة ذات الشـعـر المعقوص .

قالت : يا إلهى .. مـاهذا الحديث السـخيف ! لماذا لا تضـاجـعنى كمـا يفـعل الآخرون؟

قال : لا . استمرى فى حديثك .

قالت : قصتى .. لا يمكنك دفع ثمنها ..

صرخ : بل أستطيع .. وسأدفع لك بالعملة نفسها .. سأخبرك بقصتى كلها .

ظلت صامتة تحملق فى الأرض. القى عليها بنظرة جانبية ، وفكر :

على كل حـــال إنها تشبه العاهرة ، وجهها الجميــــل بكل ذرة فيه يعكس حبها للذة ، ليست راعية غنم ساذجة بريئة ، بل راعية ضربت فى الضلال بعيدا، مؤلم أن يعرف المرء أنها عاهرة ، وممتع أن يحلم بأنها ساذجة وبريئة . تبدو حقيقة مثل الفتيات اللواتى يتسكعن فى مونتمارنس . أنا سعيد بأنى أشعر بالألم ثانية ، فلقد اختفى تماما لبرهة وأنا أصغى لصوتها الرقيق يحدثنى عن الكونسرفتوار .

قالت فجأة فى صوت لا مبال : هذا أمر ممل .

قال : لنشرب بعض النبيذ .

نهضت ، واتجهت بطريقة عملية ، الى خزانة الأرفف ، وسألته :

- ماذا تحب أن تشرب ؟

نظرت داخل الخزانة وقالت : هناك نبيذ أحمر ونبيذ أبيض .. أعتقد أنه «موسيل» ..

قال : عظيم .. لنشرب موسيل .

تناولت زجاجة ، وضعتها على مائدة صغيرة دفعتها قرب كرسيه، وناولته

الفتاحة ، وأحضرت كأسين بينما هو ينزع الفلينة ..

نظر اليها ثم صب النبيذ . ضربا الكأسين ببعضهما ، وابتسم اندريا فى وجهها النزق ، وقال : لنشرب نخب سنة ميلادنا ١٩٢٠ .

لم تستطع إلا الابتسام وقالت : وهو كذلك .. لكن لن أقص عليك المزيد .

قال : هل اتحدث اليك .؟

قالت : لا . فلن تتحدث إلا عن الحرب . سنتان وأنا استمع للحديث عن الحرب ولا شيء غيرها . أنتم الرجال حين تنتهون من المضاجعة تبدأون الحديث عن الحرب.. شيء مضجر .

- ماذا تريدين اذن ؟

- أريد أن أغويك .. أنت بكر .. ألست كذلك ؟

قال : فعلا .

جفل حين قفزت صائحة : لقد عرفت .. عرفت ذلك ..

نظر اليها بوجه محمر وعينين تلمعان، وقال لنفسه : أمر غريب ، من بين كل النساء اللواتى رأيتهن، لم أرغب فى واحدة أقل من رغبتى فى هذه المرأة الجميلة التى يمكننى امتلاكها متى أريد، أحيانا كنت أشعر برعشة غريزية من مجرد التفكير بامتلاكى امرأة ، لكنى لم أشعر بعدم الرغبة الا مع هذه الفتاة . أريد أن أحكى لها قصتى .. كلها ..

قال : مشيرا الى البيانو : أولينا .. اعزفى سوناتا بيتهوفن .

قالت : عدنى إذن بأن تحبنى .. وتفعل ..

قال : لا .. اجلسى هنا ..

وأجبرها على الجلوس نظرت اليه بحماقة ..

قال : والآن اسمعى .. سأحكى لك ..

نظر من خلال النافذة ، ورأى أن الشمس كادت تغيب، وأشعتها الخافتة تغطى الحدائق ، سيعم الظلام قريبا، ولا يتبقى له أى شعاع، لن يرى شعاع شمس ثانية، مر يومه الأخير مثل كل أيام حياته، بغباء ودون فائدة، وابتدأت ليلته الأخيرة. صلى قليلا، وشرب كثيرا، وهو الآن. يجلس فى ماخور .

لا يدرى كم ظل صامتا ، نسى الفتاة والنبيذ والمنزل، وسلب عينيه شعاع خافت من الشمس استقر على قمم الاشجار فى ضيعة على جانب تلة ، وجده جميلا بشكل لا يصدق. إكليل نحيـــل من شعاع الشمس، آخر ما سيراه من اشعة على قمم الاشجار العالية فى أقصى ركن فى الغرب. ثوان ولا يتبقى شىء. كتم نفسه وهو يحملق فى بقعة الضوء الصغيرة فوق هامات الشجر، ومضة ضئيلة صغيرة.. وأنا الوحيد فى العالم ، الذى يلاحظها، ما زالت هناك ومضة كابتسامة باهتة ، شرارة ، لم يتبق شىء ، ذهب الضوء واختفى المصباح ولن أراه ثانية.

أدرك أنه الآن يستطيع الكلام ، واقناعها ، ففى الظلام فقط يستطيع المرء أن يخضع مقاومة امرأة، أصحيح هذا الكلام، أم يخدع نفسه ، يشعر أنها ملكه الآن، وأنها قد سلمت اليه .

قال بهدوء امام عينيها الخائفتين: أولينا .. غدا.. فى الصباح الباكر سأموت . لا تخافى شيئا . غدا أموت وأنت أول من تعرف. سأموت على مسافة قريبة من «ستريج» . قفزت ، ونظرت اليه فى رعب وشحب وجهها : أنت مجنون . قال : لا . لست مجنونا والأمر كما أقول .. وعليك أن تصدقينى . لست مجنونا وسأموت غدا مبكرا فى الصباح.. وعليك الآن أن تعزفى لى سوناتا بيتهوفن .

حملقت فيه، وتمتمت فى رعبها : ذلك .. ذلك لا يعقل .

– أنا متأكد من ذلك . ولقد برهنت عليه حين نطقت بكلمة «ستريج» ، الاسم

المرعب ستريج.. ما نوع هذه الكلمة ؟ ولماذا يجب أن أموت هناك ؟ كان الأمر سيتم أولا بين لفوف وتشيرنوفتسى، ثم فى كولوميا ثم ستانسلاف.. والآن ستريج، وحين قلت ستريج عرفت على الفور أنه المكان .

صاح : قفى ..

لأنها هرعت الى الباب والرعب فى عينيها .

- ابقى معى . لابد أن تبقى .. فأنا بشر ولا أستطيع احتمال كل ذلك وحدى.. ابقى معى يا أولينا .. أنا لست مجنونا .. لا تصرخى ..

وضع يده على فمها قائلا : قولى لى ماذا أفعل حتى أثبت لك أنى لست مجنونا ..؟

لكنها كانت خائفة لدرجة أنها لم تفهم ما يقوله ، فقط نظرت اليه بعينين مفزوعتين . وفهم فجأة كم هى مرعبة مهنتها ، لو كان مجنونا بالفعل فماذا كان عليها أن تفعل سوى الوقوف هناك عاجزة تماما ؟

يرسلونها الى غرفة بعد قبض ٢٥٠ ماركا أجرتها لأنها مغنية اوبرا ، دمية صغيرة مكلفة ، وعليها أن تدخل الغرفة مثل الجندى الذى يؤمر بالتقدم .

وعليها حتى هى الدمية المكلفة الصغيرة ، أن تطيع الأوامر ، عليها الذهاب الى غرفة معينة دون أن تعرف من ينتظرها ، قد يكون عجوزا او شابا ، قبيحا أو أنيقا، وحشا أو ساذجا لا يمكنها أن تعرف ، ولكن عليها الذهاب.. والآن ها هى هناك، خائفة حتى الموت ، لدرجة أنها لا تفهم ما يقوله. يا لها من حياة بائسة ، ويالها من جريمة أن تضطر النساء للذهاب الى المواخير ليدفع بهن لأحضان الرجال فى غرف خاصة !

ربت على يدها التى يمســـــكها برفق، ودهش لأن يرى الخـــوف يتلاشى من

عينيها، استمر في التربيت ، وكأنها طفل تطبطب عليه لطمأنته . هذه المرأة هى أقل امرأة يشتهيها، بدت كطفلة ، وتخيلها فتاة صغيرة قذرة ، تلعب وسط مساكن صغيرة في ضواحى برلين البائسة، تبكى وآثار الدموع على وجهها، لأن زميلاتها رمين لعبتها فى بركة صغيرة وجرين وتخيل نفسه ينحنى ويلتقط لعبتها الرخيصة المصنوعة من قطع قماش ممزقة، من البركة وقد تشبعت بالماء، ويربت على يدها ليواسيها لابتلال لعبتها إنها طفلة .

سألها «أكل شيء على ما يرام.. أليس كذلك ؟» .

أومأت ، وترقرقت الدموع فى عينيها .

قادها برفق الى الكرسى، وهبط الليل موحشا وحزينا .

جلست طائعة ، تنظر اليه بعصبية طوال الوقت .

صب النبيذ فى كأسها ، فشربت ، وتنهدت بعمق، وقالت :

– يا إلهى .. كم أخفتنى .

وأفرغت كأسها جرعة واحدة .

قال : اولينا .. أنت الآن فى الثالثة والعشرين.. اسألى نفسك هل ستعيشين حتى تبلغى الخامسة والعشرين ؟ هل تتابعين ما أقصد ؟

كان يتكلم بإلحاح : قولى لنفسك إنك فى الخامسة والعشرين .

ذلك سيكون فى فبراير ٤٥ . حاولى أن تفعلى ما أقوله .. انظرى داخل نفسك. أغلقت عينيها ، ولاحظ أن شفتيها تتفوهان ببعض الكلمات البولندية لابد أنها تعنى فبراير ٤٥ .

قالت ، فاتحة عينيها وهازة رأسها : لا . لا يوجد شيء .. أعنى بالضبط كأنه لا يوجد شىء .. غريب .. أليس كذلك ؟

قال : أرأيت ؟ حين أفكر فى ظهر يوم الأحد .. ظهر الغد ..

لا أجد شيئا هناك .. ذلك هو الأمر .. لست مجنوناً .

أغلقت عينيها ثانية ، وكانت تتمتم لنفسها .

قالت : أمر غريب .. فلا أستطيع .. تخيل فبراير ١٩٤٤ إنه ليس هناك ..

قالت فجأة : آه .. لماذا لا تضاجعني ؟ لماذ لا تراقصني ..؟

جرت إلى البيانو ، جلست وبدأت تعزف لحن أغنية « سأرقص معك عبر بوابة السماء ، سماء الحب السابعة» ..

ابتسم أندريا وقال : اعزفي سوناتا بيتهوفن .. هيا .

لكنها عزفت ثانية «سأرقص معك عبر بوابة السماء» ، عزفتها برقة شديدة ، رقة تسلل الشفق من خلال ستائر النافذة المنفرجة ، عزفت هذه الأغنية القديمة العاطفية المفضلة دون عاطفة ، وبدا ذلك غريبا ، كانت نغمتها شبه حادة كأنها تضرب بمطرقة ، لكن باستسلام شديد كما لو أنها أرادت تحويل البيانو الخاص بالماخور إلى آلة هاربيشورد .

إنه الآلة المناسبة لها وكان عليها أن تعزف عليه .

ثم بدا وكأنها لم تعد تعزف الأغنية القديمة ذاتها . وإن كانت هى . يالها من نغمة ساحرة . إنها تستخلص منها لحنا ممتازا . ربما درست التأليف الموسيقى ، فهى تحول الهواء إلى سوناتا معلقة فى الشفق ، كيف تستخرج النغمة القديمة ، واضحة نقية دون ذرة عاطفة ، والفكرة تقف مثل صخرة وسط أمواج من موسيقى ناعمة تحيطها .

عم الظلام وبدأ الجو يبرد ، لكنه لم يهتم ، لقد استمتع بعزفها لدرجة منعته من النهوض لإغلاق النافذة ، وما كان لينهض حتى لو وصلت درجة الصقيع المتسرب من النافذة إلى الصفر .

ربما يحلم أنه فى سنة ٤٣ وأنه يجلس فى ماخور فى لفوف ويرتدى بدلة جيش

هتلرية رمادية . ربما ولد فى القرن السابع عشر وها هو يجلس فى صالون سيدته المحبوبة تعزف له على الهاربيشورد ، وكل موسيقى العالم له . ربما نحن فى قلعة فى مكان ما فى فرنسا أو فى غرب المانيا ، فى القرن الثامن عشر ، أصغى إلى تلك التى أحبها تعزف لى وحدى . العالم كله ملكى فى هذه الساعة الأولى من الليل ، سنضىء الشموع حالا ، ولن أدعو الخادم ليفعل ذلك . سأضيؤها بقطعة ورق . سأمزق قطعا من ورق دفتر الراتب وأشعلها فى النار . لكن لا توجد نار فى المدفأة ، وتيار بارد رطب يهب من الحديقة . نحن فى حاجة للنار ، سأشعلها بنفسى ، سأجثو على ركبتى أمام المصطلى ، وأكوم العصى بمحبة ، وأمزق دفتر الراتب إلى قطع صغيرة وأشعل فيها النار بالكبريت الذى سجلته اولينا على حسابى ، وسيدفع ثمن كل ذلك من رهن لفوف ، سأجثو عند قدميها وأنتظر بصبر جميل حتى تشتعل النار .

قدماها بردتا وهى تلعب على الهاربيشورد ، فقد جلست طويلا أمام النافذة المفتوحة فى الهواء المثلج تعزف لى ، شقيقتى تعزف بجمال يمنعنى من النهوض لإقفال النافذة . سأشعل نارا ساطعة بنفسى ولن أنتظر استدعاء الخادم فلن نحتاجه ، ولحسن الحظ فإن الباب موصد . سنة ١٩٤٣ ، ياله من قرن مفزع ، ويالها من ملابس مخيفة تلك التى يرتديها الرجال ، يمجدون الحرب ويرتدون ملابس ملوثة قذرة حين يذهبون إليها ، نحن لا نمجد الحرب ، بل نعتبرها مهنة شريفة مع أننا غير متأكدين من تسلم رواتبنا ، وخلالها نرتدى ملابس براقة مثل الطبيب أو العمدة أو العاهرة ، لكن جنود القرن العشرين سيرتدون ملابس مفزعة ويمجدون الحرب ويخوضون المعارك فى سبيل بلادهم - قرن مرعب .

أمامنا الليل بطوله ، الباب مغلق ولا شىء يمكن أن يزعجنا ، القلعة كلها لنا ،

ولدينا نبيذ وشموع وهاربيشورد . ثمانمائة وخمسون ماركا ودون أن تحسب الكبريت ، نيكوبول لا شيء ، كيشينيف لا شيء ، ستريج .. ستريج .. اسم مرعب .. مثل خط دموى حول رقبتي ، هناك سأقتل ، كل موت في الحرب هو قتل ، قتل مسئول عنه شخص ما ، «سأرقص معك عبر بوابة السماء – سماء الحب السابعة» .

لم يكن حلما ملهما ذلك الذى وضعت نهايته آخر نغمة عزفتها ، مزق الصمت بيت العنكبوت الواهن لأحلام اليقظة ، وفى لسعة البرد من النافذة المفتوحة أدرك أنه كان يبكي ، لم يشعر بالدموع لكن وجهه كان مبتلا ، وبدا «أولينا» الرقيقتين ، تجففان مسار الدموع على خديه وإلى ما تحت الياقة المغلقة لردائه . فكت الياقة وجففت عنقه وخديه وعينيه بمنديل . شكرها فى سره لأنها لم تتكلم . كان ممتلئا بنوع غريب من الابتهاج .

أضاءت الفتاة النور ، وأقفلت النافذة وهى تدير وجهها ، ربما كانت تبكى أيضا .

وفكر أندريا ، وهى تتجه نحو الخزانة ، بأنه لم يعرف بهجة مريحة صافية كهذه ، عرف الرغبة فقط – الرغبة فى جسد امرأة مجهولة ، أو فى روحها ، والآن ليست لديه أية رغبة ، من الغريب أن يتعلم الاستغناء عن الرغبة فى ماخور فى لفوف فى المساء الأخير لحياته ، وعلى عتبة الليلة الأخيرة لحياته الأرضية ، التى ستنهيها ضربة دموية من القدر فى الصباح المبكر .

قالت اولينا مشيرة إلى كنبة «استلق هنا» . كانت قد أشعلت طبقا كهربيا فى خزانتها الغامضة .

– سأصنع بعض القهوة .. وأثناء ذلك أحدثك عن نفسى .

استلقى ، وجلست بجانبه كانا يدخنان السجائر ويشتركان فى «طقطوقة» واحدة موضوعة على كرسى بلا ظهر قريبا منهما .

وبدأت تتحدث بهدوء : «لا ضرورة لأن أقول لك ألا تبوح بكلمة مما تسمعه إلى أى شخص ، حتى لو لم تمت يجب عليك ألا تكشف السر . أعرف أنك لن تفعل . لقد أقسمت بالله وبالوطن وبكل القديسين ألا أخبر أحدا ، لكنى حين أخبرك فكأنى أخبر نفسى ، وحيث أنى لا أخفى سرا عن نفسى ، فلا أستطيع أن أخفى عنك سرا .

نهضت ، وصبت الماء المبقبق ، بحرص وبطء شديد ، فى وعاء قهوة صغير ، مبتسمة له ، لاحظ آثار الدموع على وجهها . ملأت فنجانين ووضعتهما على الكرسى الذى عليه منفضة السجائر ، وعادت لحديثها :

«جاءت الحرب سنة ٣٩ ، ودفن والدى تحت أنقاض بيتنا فى وارسو ، وتركت وحيدة تماما فى حديقة الكونسرفتوار حيث اعتدت أن أعبث مع الآخرين . وجر المدير إلى السجن لأنه يهودى ، ولم تعد لدى الرغبة فى دراسة البيانو . لقد قهرنا الالمان تماما» .

شربت بعض القهوة ، وارتشف أندريا رشفة ، ابتسمت له وأضافت :

«الغريب أنك ألمانى .. ومع ذلك لا أكرهك» . توقفت مبتسمة وفكر أندريا بأن تحولها يثير العجب ، حين راحت تعزف كانت تود غوايتى ، وحين عزفت «سأرقص معك عبر بوابة السماء» ، ظننت أن ذلك الأمر مازال فى ذهنها ، لابد أنها بكت وهى تعزف .

واصلت حديثها: «أصبحت كل بولندا حركة مقاومة واحدة ، ليست لديك أية فكرة ، حركة متشابكة ، بالكاد يوجد بولندى غير وطنى . وحين يذهب أحد منكم أيها الجنود إلى وارسو أو كراكو ويبيع مسدسه ، فلابد أن يفهم أنه يبيع حيوات زملاء له بعدد طلقات الرصاص التى يبيعها مع مسدسه .. وإذا نام جنرال أو ضابط كبير مع فتاة فى أى مكان ، وأخبرها أنه فى كييف أو لوبروفتز أو فى أى

مكان لا يوجد تموين أو أنهم يعسكرون على بعد ٣ كم مثلا ، فإن المعلومة ستسجل بالتأكيد وستقدرها الفتاة أكثر من المبلغ الذى يدفع لها نظير ما يسمى تسليم جسدها . من السهل التجسس على الالمان ، سهل جدا حتى أنى مللت من ذلك . على الواحدة فقط أن تحتضن الرجل بين ذراعيها ، وأنا لا أفهم ذلك . أنتم أكثر الشـــعوب ثرثرة فى العالم ، كما أنكم عاطفيون حتى أطراف أصابع أقدامكم .

هزت رأسها ونظرت إليه بعفوية تقريبا : فى أى جيش أنت ؟ أخبرها بالرقم . قالت : لا . إنه فى رقم آخر .. أتحدث عن جنرال يزورنى هنا أحيانا .. اعتاد أن يتكلم مثل طالب مراهق .. وكان يشرب كثيرا ، اعتاد أن يزفر قائلا : يا أبنائى .. يا ابنائى المساكين .. وبعد قليل يثرثر لى عن كل شىء . عرفت الكثير من المعلومات المهمة الخطيرة .. وتسببت فى موت الكثيرين من ابنائه الأعزاء .. ثم .. ثم .. وقالت بتردد : أصبحت كتلة من الجليد .

سألها : هل أحببت كثيرا من زوارك ؟

وتعجب أن يؤلمه التفكير فى أنها قد أحبت بعض زبائنها أحيانا .

قالت : نعم .. انتابتنى أحيانا مشاعر حقيقية تجاههم .. ليس غالبا . وتطلعت إليه ، ورأى أنها تبكى ثانية . أمسك بيدها ، واعتدل قليلا ليصب بعض القهوة فى الفنجانين بيده الأخرى .

أضافت : نعم .. أحببت بعضا من الجنود الذين يجب أن أكرهم .. لأنهم من الألمان .. لكن الأمر سيان بالنسبة لى .. حين أسلم نفسى إليهم أشعر وكأننى منعزلة عن اللعبة المرعبة التى نشترك جميعا فيها ، وأنا بصفة خاصة . كانت اللعبة أن أرسل الآخرين الذين لا أعرفهم إلى حتفهم .. أترى ؟

وقالت هامسة : «حين يخبرنى أحدهم بشىء خاص أو عام .. أى شىء ..

أمرره وتتحرك الآلة ويموت رجال لأنى أمددت المقاومة بالمعلومات .. هل تفهم ؟ حملقت فيه بنظرة واسعة من عينيها، الامر .. كما تقول لصديق لك فى محطة السكة الحديد : اركب هذا القطار وليس الذى يليه ، ثم يهـــاجم القطار الذى ركبه ويقتل ، لأنك أنت الـذى أخبرته أن يركب ذلك القطار . وذلك هو السبب بأنى حين أعجب بواحد ، أنام معه دون أن اسأله أى سؤال ، أو أجمـــع منه أية معلومات لفسيفسائنا .. وقد كان يؤلمنى أن أرى كم كانوا تعساء بعد ممارسة الجنس .

سأل أندريا ببحة فى صوته : فسيفساء ! ما ذلك ؟

– نظام التجسس كله كقطعة الفسيفساء .. تجمع المعلومات وتسجل ويقارن بينها .. كل قصاصة من المعلومات التى نعرفها .. حتى تكتمل الصورة .. بالطبع يلزم وقت لإكمالها .. ولكن تجميعنا لقطع الفسيفساء يعطينا فى النهاية صورة حقيقية عن الجيش الالمانى ونظام معاركه .

أضافت وهى تتطلع إليه جادة : «المرعب أن كل ذلك لا معنى له . ففى كل مكان يقتل الابرياء .. على أيدينا وأيدى غيرنا .. لقد شعرت بذلك على الدوام بشكل غامض» .

أبعدت عيناهـا عنه «لكنى فهمت نصف الحقيقة على الوجه الصحيح حين دخلت هذه الغرفة ورأيتك هنا ... حين رأيت ظهرك وعنقك فى ضوء الشمس الذهبى ..

وأشارت إلى النافذة التى كان الكرسيان بجانبها . «حين أرسلت إليك قالت لى المرأة العجوز .. هناك رجل ينتظرك .. لن تحصلى منه على معلومات كثيرة فيما أظن .. لكنه سيدفع جيدا . حين قالت ذلك ، فكرت بأنى سأحصل منه على شيء على كل حال .. أو ربما سيكون شخصا أحبه . لو أحببته فلن يكون أحد ضحايانا، فالجنس البشرى ينقسم إلى قسمين : ضحايا وجلادين . وحين رأيتك

عند النافـــذة .. ظهرك وعنقك وهيئتك الصغيرة المنحنية كما لو أنها تحت ثقل ألف سنة .. أدركت أننا نحن البولنديين نقتل الابرياء فقط .. فقط الابرياء .

بكت بصمت ، وبطريقة مثيرة للشفقة .

نهض أندريا وربت على مؤخـــر عنقها ، ثم اتجـــه إلى البيـــانو . نظرت إليه مندهشـــة ، وتوقفت عن البكاء وهي تشاهده يجلس على كرسى البيانو محملقا بالمفاتيح وأصابعه تنتشر عليها بعصبية ، بينما تعقد جبينه بخط عميق من الألم .

قالت لنفسها :«لقد نسينى .. أمر مفزع .. حين يكونون أنفسهم ينسوننا دائما .. لم يعد يفكر بى ، ولن يفكر بى ، غدا صباحا سيموت فى ستريج ولن يكون لديه وقت للتفكير بى .. على كل حال أنا أحبه .. وهو حبى الأول والوحيد . ها هو هنا وحيد بدرجة مفزعة ، والخط المعقد الذى يقطع جبهته قسمين شاحب من الخوف ، وأصابعه منتشرة على البيانو كما لو أنها تريد القبض على وحش خطير ، لو اســتطاع العزف ، فسيكون لى ثانية ، إنه لى ، إنه أخى ، وأنا أكبر منه بثلاثة أيام ، آه لو يستطيع العزف . يبدو أن تشنجا مريعا أصابه فجمد أصابعه ، وسحب الدم من وجهه ، وجعله بائسا بلا حدود ، لم يبق شىء من السعادة التى سعيت لأمنحها إليه حين عزفت له ، ولا يذكر شيئا مما أخبرته به ، ولم يتبق إلا حزنه» .

ثم فجأة ، وبنظرة هائجة ضرب المفاتيح بأصابعه ، وألقى إليها بالنظرة الأولى مبتسما ، لم تر وجها سعيدا كالوجه الذى تراه فوق البيانو الطويل الكبير الأسود، فى ضوء المصباح الليلى الباهت ، كم تحبه ، وكم هو سعيد ، إنه لها . وسيكون معها فى هذه الغرفة حتى الصباح .

ظنت أنه سيعزف قطعة مجنونة أو نغما لتشايكوفسكى أو فرانز ليست أو

إحدى مقطوعـــات «شوبان» الجميلة ، لأنه خبط مفاتيح البيانو كالمســـوس ، لكن لا، صمـت قليلا ثم بدأ يعزف سوناتا قصيرة لبيتهوفن ، قطعة صغيرة رقيقة صعبة ، وخـــافت ، للحظة ، أن يفسدها ، لكنه عزفها بجمال وحرص ، كأنه لا يثق فى نفسه، عزفها بعناية محببة ، لم تر وجها بهذا الجمـــال لجندى يتطـلع إلى ظهـر البيانو اللامـــع ، لم يكن متأكداً من نفسه ، لكن عزفه كان دقيقاً وصافيا ، أنقى من أى شىء تذكره ، أملت أن يواصل عزفه ، كانت سعيدة وهى تستلقى على الكنبة مكانه ، ورأت سـيجارتها تدخن فى منفضة السجائر ، وأرادت أن تلتقطهـــا ، ولم تجرؤ على الحركة ، لأنها أدركـــت أن حركتـها الطفيفة ستفسد العـزف ، لكن سعادتها كانت اكبر بوجهه السعيد وهو يتطلع إلى البيانو

أنهى عزفه ، ووقف ، قال ضاحكا : لم يتبق الكثير .. لا معنى للعزف إلا إذا تعلمه المرء بشكل صحيح .. وذلك ما لم أفعله .

انحنى فوقها ، وجفف دموعها ، كان سعيدا أنها بكت . قال «لا تنهضى .. ابقى مستلقية وسأتحدث إليك» .

همست «نعم ، تحدث لى .. لكن اعطنى بعض النبيذ أولا .»

فكر وهو يتجه إلى خزانة الخمور «كم أنا سعيد ، سعيد لحد الجنون ، مع أن عزفى لم يكن بالمستوى المطلوب . فلم أقم بمعجزة ولم أصبح فجأة عازف بيانو .. لكن ذلك انتهى ومازلت سعيداً ».

نظر داخل الخزانة ، ثم أدار وجهه لها وقال : «أى نوع ؟»

قالت مبتسمة «أحمر هذه المرة» .

تناول قنينة ذات بطن واسع ، ورأى الورقة والقلم . نظر إلى الورقة ، كان مكتوبا عليها شىء ما بالبولندية «لابد أنه الكبريت ، وتحته الكلمة الالمانية

«موسيل» مسبوقة بكلمة بولندية خمن أنها زجاجة . ياله من خط جميل من يد رقيقة ناعمة . كتب تحت كلمة «موسيل» كلمة «بوردو» ووضع شرطتين تحت الكلمة البولندية .

قالت مبتسمة وهو يصب النبيذ «هل سجلتها فعلا؟» .

– طبعاً .

– لا تريد أن تخدع حتى صاحبة ماخور !

قال : قد أخدعها ..

وطافت فى ذهنه فجأة محطة «دريسدن» الرئيسية ، وشعر بطعمها على طرف لسانه ، وهو يتخيل الضابط أحمر الخدين . قال :

«منذ فترة وجيزة خدعت ضابطا» ، وحكى لها القصة ، ضحكت وقالت «ليس فى ذلك ضرر على الإطلاق ».

قال «ما كان ينبغى أن أفعل ذلك . كان يجب أن أناديه وأخبره بأنى لست أطرش .. لكنى ظللت صامتا لأنى أدركت أنى سأموت قريبا ، ولأنه زعق فى وجهى ، وجرح مشاعرى ، بالإضافة أنى كنت كسولا جدا . كنت كسولا جدا لأرد عليه ، فقد كنت فى تلك اللحظة أشعر بالسعادة لأنى حى ، وأردت أن أكون واعيا بذلك ولا يصرفنى عن ذلك شىء . لكن قلت لنفسى بعد ذلك «لا تهن أى شخص حتى لو كان ضابطا جديدا يحمل شارات جديدة على صدره ، لا يجب أن يفعل المرء ذلك ابداً مازلت أراه يمضى مرتبكا ومتألما بوجهه القرمزى هو وجنوده المبتسمون . أستطيع أن أرى ذراعيه البدينتين ، وكتفيه الهزيلتين الغبيتين . كاد ذلك يدفعنى للبكاء ، لكنى كنت كسولا حتى لأفتح فمى ، لم يكن ذلك نتيجة للخوف ، بل كان عقلى ممتلئا بجمال الحياة ينعكس على حشود البشر ، رجل عائد إلى زوجته ، وآخر إلى حبيبته ، وسيدة قادمة لمقابلة ابنها ، واثنان يشقان

طريقهما إلى الحاجز يقبلان بعضهما فى تلك الليلة الخريفية المعتدلة تحت حفيف الأشجار اللطيف .

تنهد وأضاف «سأعترف لك عن كل الاشخاص الذين خدعتهم »

قالت : «استمر فى الحديث وأخبرنى بشىء طريف» .

ضحكت وأضافت : «على كل حال .. من الذين خدعتهم ؟»

– سأقول لك الحقيقة . سأخبرك عن كل شىء سرقته .. وعن كل من خدعتهم.

ملأ الكأسين ثانية ، وشرب فى صحتها ، وفى تلك اللحظة ، وهما ينظران لبعضهما مبتسمين من فوق حافتى كأسيهما ، تشرب وجهها الجميل فى كيانه ، وفكر بأنه يجب ألا يفقدها فهى له ، وفكرت كم هى تحبه .

وبدأ الحديث : «مات أبى نتيجة لجرح شديد حمله معه ثلاث سنوات بعد الحرب الأولى . كان عمرى عاما واحدا حين مات ، ومضت أمى بعده مباشرة . أعرف القليل عن والدىّ ، ولقد أخبرونى بذلك ، حين اقتضت الضرورة أن يشرحوا لى أن المرأة التى ظننتها دائما أمى ليست أمى ، وإنما خالتى وقد شببت فى بيتها . كانت متزوجة من محام يكسب الكثير من النقود ، ومع ذلك كنا نبدو دائما فقراء جدا . كان مدمنا على الخمر ، وأصبح أمرا عاديا أن أرى سيد البيت على مائدة الافطار بمزاج سيىء وتصرفات سكير ، وحين عرفت رجالا آخرين ، آباء أصدقائى ، لم أرهم رجالا على الإطلاق ، فالرجال الذين لا يترنحون فى الليل ولا يقومون بمشاهد هستيرية على الفطور ، أمر لم أدركه ، ولا ينبغى أن يكون على رأى «سويفت» ، ظننت أننا كلنا ولدنا لكى يصرخ فى وجوهنا ، وأن النساء خلقن ليصرخ فيهن أزواجهن ، وليتخانقن مع المحضرين ، ويقمن بشجارات مفزعة مع البائعين ، وأن يفتحن حسابا فى أى مكان يستطعنه . خالتى كانت عبقرية فى ذلك. فحين يبدو أننا قد فقدنا كل شىء ، تجلس ساكنة برهة ، وتبلع اسبرينة ، ثم

تنطلق ، وتعود بعد قليل وقد تدبرت بعض النقود . افترضت دائما أنها أمى ، واعتبرت ذلك الوحش البدين الذى ينتفخ خداه بعروق حمراء على وشك الانفجار ، الراعى الأمين لى . كان بياض عينيه أصفر ، ورائحة نفسه حمضية من شرب البيرة ، وينضح برائحة كالخميرة الفاسدة . ذلك هو الرجل الذى اعتبرته أبى . كنا نعيش فى فيللا جميلة ، ولدينا خادم ، وكل شىء ، لكن غالبا لا يكون مع خالتى أجرة الباص ، مع أن الرجل كان محاميا شهيرا .

سألها فجأة وهو يقف ليملأ الكأسين ثانية : ألا تجدين كلامى مملا ؟ همست : لا . استمر .

استغرق ثوانى قليلة لملء الكأسين الطويلتين الرقيقتين الموضوعتين على المائدة الصغيرة ، كانت كافية لكى تنظر إلى يديه ووجه الطويل الشاحب ، وتتساءل كيف كان شكله وهو فى الخامسة أو السادسة أو الثالثة عشرة ، وهو يجلس على مائدة الفطور . استطاعت أن تتخيل بسهولة العم المغرور المخمور يرفض أكل المربى أو أى شىء سوى السجق ، فالمخمورون يستطيعون دائما تناول السجق . وتخيلت الخالة امرأة طيبة القلب ، والولد الصغير الشاحب يجلس معهما خائفا ، يأكل بالكاد ولا يجرؤ أن يكح مع أن حلقه متهيج من دخان السيجار الكثيف ، ويود أن يكح ولا يجرؤ بسبب الوحش المنتفخ المخمور حتى لا ينفجر بالغضب ، فالمحامى الشهير يصاب بنوبة عصبية عند سماعه طفلا يكح .

قالت : أخبرنى عن خالتك .. ما شكلها .. صفها بدقة قدر ما تستطيع .

قال : كانت ضئيلة الحجم .. لطيفة .

– هل كانت تشبه أمك ؟

– نعم .. لو حكمنا من الصور . كانتا متشابهتين . بعد ذلك ، حين كبرت

وبدأت أفهم الأمور رأيـــت من المفزع لها أن يعانقها هذا الوحش الثقيـــل الضخم ، بنفسه الكريه وبقع عروقه التى تكاد تتفجر بالدم من خديه المنتفختين وأنفه .. ففى تلك اللحظـــة تستطيع أن ترى عينيه الصفراوين الغائمتين وكل شىء .. وقد تلبستنى الصـــورة أشهرا عدة كلما فكرت فيها ، وكنت طـوال الوقت أظن أنه أبى وأتعذب فى السرير ليلا متسائلا لماذا يتزوج أمثال هؤلاء الناس ؟

سألتها : وهل خدعت خالتك أيضا ؟

قال : «نعم» صمت لحظة وتخطاها بنظراته : «كان ذلك مفزعا فقد مرض ذات يوم وكانت كل أعضائه فى حالة مخيفة .. الكبد والكلى والقلب ، كان ينام فى المستشفى وذهبنا لزيارته صباح يوم أحد لأنه كان ستجرى له عملية . كنت تعيسا جدا ، مع أنه كان يوما جميلا . بكت خالتى بمرارة ، وظلت تقول لى همسا أن أصلى من أجله حتى تسير الأمور بشكل حسن ، وكنت مضطرا للقول بأنى سأفعل . ولكنى لم أفعل . كنت فى التاسعة وقد عرفت أنه ليس أبى . لم أصل من أجل نجاح العملية ، ببساطة لم أستطع أن أفعل ، كما أنى لم أصل من أجل ألا يشفى . التفكير فى ذلك كان يرعبنى ، لكن الصلاة من أجل شفائه كانت فوق طاقتى ، فكرت ، لا إراديا غالبا ، كم تكون الحياة جميلة لو ... أنت تعرفين . سيكون البيت كله لنا نحن الاثنان ، ولن تكون هناك المشاهد إياها ، وكل شىء سيغدو على ما يرام ، لكنى وعدت خالتى أن أصلى من أجله وأنا لا أستطيع ، وبدلا من ذلك ظللت أتساءل لماذا ، بحق السماء ، تتزوج النســاء مثل هؤلاء الرجال ؟ قالت أولينا فجأة «لأنهن يحببنهم» .

قال مندهشا : إذن أنت تعرفين ذلك .. كانت تحبه بالفعل ومازالت تحبه . كان شكله مختلفا حين كان طالبا .. عرفت ذلك من صورة التقطت له قبل امتحانه

النهائى .. كان يرتدى قبعة من تلك القبعات السخيفة التى كان يرتديها الطلبة فى أوائل القرن ، كان شكله مختلفا آنذاك .. لكنه اختلاف مظهرى فقط .

– ماذا تعنى ؟

– على السطح فقط ، وجدت أن له العينين نفسهما .. فقط كرشه لم يكن كبيرا ، حتى فى شبابه كان يبدو مخيفا .. لو كنت امرأة ورأيته وهو فى الخامسة والعشرين لما كنت تزوجته .. لكن خالتى مازالت تحبه مع أنه غدا حطاما ويسئ معاملتها .. بل يخونها أيضا .. تحبه بلا شروط وذلك شئ لا أفهمه .

قالت : ألا تفهم ؟!

نظر إليها باندهاش ، اعتدلت فى جلستها وأنزلت قدميها على الأرض ، وسألته بحميمية : ألا تفهم ذلك ؟

قال : «لا» ، قالت وهى تثبت عينيها عليه : «اذن أنت لا تعرف ما هو الحب» .

جفل من التعبير المتغير الجاد الحنون الذى ارتسم على وجهها .

رددت : «نعم .. غير المشروط .. الحب دائما غير مشروط .. ألم يسبق لك أن أحببت امرأة ؟» .

أغلق عينيه بسرعة ، وسيف الألم يخترقه بعمق مرة أخرى ، لابد أن أخبرها بذلك أيضا ، فلن تكون بيننا أسرار ، مع أنى أملت أن أدخر هذه الذكرى لنفسى ، ذكرى وجه غريب آخذها معى دون أن أشرك أحدا بهذا الكنز الخاص .

استمر فى إغلاق عينيه ، والسكون يلفهما ، ارتعد من اللوعة ، سأحتفظ بسرى فهو ملكيتى الخاصة التى ساعدتنى على الصمود ثلاث سنوات ونصف منذ تلك اللحظة العابرة من الرؤية على جانب تلة قرب «إميان» ، لماذا تسبر أعماقى بهذه القوة ؟ لماذا تفتح جرحا سريا بكلمة تخترقه كمشرط فى يد جراح ماهر ؟

كانت «أولينا» تفكر «هو ذاك ، إنه يحب امرأة أخرى وذلك يجعله يقاسى .. فالذين نحبهم هم الذين يتسببون لنا بأكبر الأذى .. إنه قانون الحب . لقد آذيته كثيرا لدرجة أنه لا يستطيع البكاء ، هناك آلام لا تستطيع حتى الدموع أن تخففها ، لماذا لم أكن تلك الأخرى التي يحبها ؟ لماذا لا استطيع استبدال روحى وجسدى معها ؟ لا أرغب بالاحتفاظ بشئ من نفسى ، أود أن أعطيه كل نفسى وما أملكه ، لو لى فقط عينا تلك المرأة ، لهذه الليلة الأخيرة ، قبل موته ، وهى ليلتى الأخيرة لأنه إذا مات فلا معنى للحياة .. آه لو استطعت أن تكون لى أهداب عينيها بنفسى كلها .

قال برقة، وبصوت بلا نغمة كصوت رجل يموت : «نعم .. لقد أحببت بعمق .. وعلى استعداد أن أبيع روحى لأرى فمها .. أدرك ذلك الآن .. فى اللحظة التى سألتينى فيها .. وربما لذلك لم يرد الله لى أن أعرفها ، فقد كنت سأرتكب أية جريمة لأرى طرف جونلتها وهى تختفى عند ناصية شارع ، كنت تواقا لشئ حقيقى ، ملموس ، كنت أصلى كل يوم لأجلها ، كل يوم ، وكل شئ كان وهما وخداع نفس . أعتقد أنى أحببت روحها ، وروحها فقط ، مع أنى كنت سأهب كل تلك الصلوات في مقابل قبلة واحدة . ذلك ما ادركته الآن للمرة الأولى .»

وقف ، ابتهجت لتسمع هذا الصوت وقد عاد للحياة ثانية ، صوت شخص حى يقاسى ، لكنه جعلها تشعر مرة أخرى بأنه لا يفكر فيها وأنه كان وحيدا جدا .

قال كما لو كان يكلم نفسه «نعم .. أعتقد أنى أحببت روحها .. لكن ما الروح بلا جسد .. روح آدمية بلا جسد آدمى . ما كنت أستطيع أن أرغب روحها بكل الوجد الذى استطيعه دون أن أرغب مرة واحدة على الأقل أن تبتسم لى .»

رفع يديه عاليا ، وصاح «الأمل دائما .. الأمل المجنون الأخرق الذى قد يتحول يوما إلي جسد حي . كم الساعة الآن ؟ » .

قالها محتدا ، وعلى الرغم من خشونة وحدة كلامه معها وكأنها خادمة فقد كانت سعيدة ، فهو على الأقل لم ينس وجودها .

أضاف بسرعة «سامحينى» وأمسك بيدها ، لكنها كانت قد سامحته بالفعل ، سامحته منذ زمن ، نظرت إلى ساعتها مبتسمة : «إنها الحادية عشرة» وشعرت بالسعادة لأنها الحادية عشرة وليست منتصف الليل بعد ، ذلك رائع وجميل ، وانتابتها البهجة كطفل يلعب .

قفزت واقفة ، ودارت فى الغرفة ترقص وتغنى «سأرقص معك عبر بوابة السماء .. سماء الحب السابعة» .

نظر إليها وفكر «من الغريب أنى لا أستطيع التشاجر معها .. كنت أموت من الألم تقريبا .. مرض الموت .. وهاهى ترقص ، على الرغم من أنها شاركتنى ألمى بطريقة ما .. لكنى لا أستطيع أن أغضب منها ..

قالت فجأة «أتعرف .. لابد أن نأكل شيئا .. ذلك ما نحتاجه» .

جفل وقال : «لا .. ليس ذلك» .

– لماذا ؟

– لأنك ستضطرين للخروج من الغرفة .. لا .. لا ..

صاح بصوت معذب : «لا تتركينى للحظة .. بدونك لا استطيع الحياة» .

سألته «ماذا تقول ؟» وهى لا تدرى ما الكلمات التى تشكلها شفتاها ، وقد انبثق داخلها أمل عاصف .

قال بهدوء : «اتسمعيننى ؟ يجب ألا تخرجى» .

فكرت ثانية «لا .. إن ذلك لا يعنى شيئا .. أنا لست التى يحبها ..»

قالت بصوت عال : «لا داعى لأن أتركك .. هناك طعام فى الخزانة» .

يا للروعة .. لابد أن هناك بسكويتا وجبنة ملفوفة بورق مفضض فى أحد أدراج الخزانة . عشاء فاخر . بسكويت وجبنة ونبيذ .. لم يعد يستمتع بسجائره ، فالتبغ جاف ويذكره بشكل بغيض ، بتعيين الجيش .

قال : اعطنى سيجارا .

فقد كان يوجد صندوق كامل من السيجار الفاخر .. النوع الذى يدخنه كبار الضباط .. وكله على حساب رهن لفوف . كم هو ممتع أن يقف هناك على سجادة بالغة النعومة ، يراقب اولينا وهى تعد العشاء القليل بيدين جميلتين رقيقتين .. وتضعه على الطاولة الصغيرة بين الكنبة والكرسى ذى الذراعين .

حين انتهت ، التفتت إليه فجأة ، وقالت بابتسامة :

«هل قلت إنك لا تستطيع الحياة بدونى ؟»

قال : «صحيح» ، لكن قلبه كان حزينا فلم يبتسم وهو يقولها . وفكر بأن عليه أن يضيف شيئا ، إنه حين يقول يحبها فقوله صحيح وغير صحيح ، وإذا قال ذلك فى وجهها فعليه أن يقبلها ، فيقع فى تمثيل كاذب ، ومع ذلك يمكنه القول إنه يحبها بضمير صاف وعليه أن يفسر مشاعره بشكل واضح ، ولا يعرف بالضبط كيف يمكن أن يشرح . فعيناها سعيدتان وديعتان جميلتان ، على عكس العينين اللتين رغبهما طويلا ومازال .

نظر فى وجهها مبتسما وقال : «لا استطيع الحياة بدونك» .

وهما يرفعان كأسيهما ليشربا نخبهما ، بدأت أيديهم ترتعش بشدة ، حتى أنهما وضعا الكأسين على الطاولة ثانية ، لقد سمعا دقا على الباب ، قام وقد أمسك أولينا من ذراعها وظهرها ، واتجها نحو الباب ، وقد ظن أن هذه نهاية كل شئ . سيأخذونها منه ، لا يريدونها أن تبقى معه حتى الصباح ، الوقت يجرى

والعالم يدور ، «ويلى» والاشقر فى سريريهما مع فتاتيهما ، والمرأة العجوز فى الدور السفلى تخطط للحصول على مزيد من النقود ، وفمها الذى يشبه فتحة الحصالة مفتوح دائما بشره . ماذا سيفعل اذا تركوه وحده ؟ لن يستطيع حتى أن يركع على ركبتيه ويصلى ، لايستطيع الحياة بدونها ، لقد أحبها فعلا ، ولا يمكن أن يأخذوها .

سأل بهدوء : نعم .. ماذا هناك ؟

وجاءه صوت العجوز بالجواب : «أولينا» .. لابد أن أتحدث مع «أولينا» .

تطلع حوله شاحبا ومفزوعا ، سيستغنى عن الخمر فى الساعات الباقية لو سمحوا لها أن تبقى معه نصف ساعة أخرى ، ثم يأخذونها ، لكن لابد أن تبقى معى أولا ، أمام عينى لنصف ساعة أخرى . فقد تعزف لى مرة ثانية ، حتى لو عزفت «سأرقص معك عبر بوابة السماء» .

ابتسمت له أولينا ، وأدرك من ابتسامتها أنها ستبقى معه مهما حدث ، وعلى كل حال فقد كان قلقا .

وبينما «أولينا» تدير المفتاح فى القفل ، عرف أنه لا يريد التحرر من القلق الذى تسببه له ، بل شعر بالسعادة لكونه قلقا .

همست له وهى تحاول الخروج «اترك لى يدك على الأقل» وترك يده فى يدها . سمعها تهمس بالبولندية بسرعة وحرارة . كانتا تتناقشان ، «أولينا» والحصالة . نظر بقلق إلى وجهها حين دخلت دون أن تقفل الباب ، ولم يترك يدها . بدت شاحبة وكأنها فقدت ثقتها بنفسها ، قالت : «الجنرال فى الدور السفلى .. وقد دفع ألفين من الماركات لأكون معه . أنه مسعور وهائج .. هل معك نقود لنغطى الفرق وإلا ..» . قال «نعم» ، وبدأ يفتش فى جيوبه بسرعة ، هناك بعض النقود التى كسبها من «ويللى» اثناء اللعب ولم يردها .

تكلمت «أولينا» من خلال الباب بسرعة من شدة الاضطراب ، ثم همست لأندريا بأن يسرع . عدت النقود وقالت «ثلاثمائة مارك .. ليتنى أمتلك شيئا .. لكن ها هو خاتمى يساوى خمسمائة مارك .. لا يمكن أن يساوى أكثر .. وذلك يجعل المبلغ ثمانمائة مارك ..» .

قال أندريا : «وماذا عن السترة ؟» وناولها لها .

مضت «أولينا» إلى الباب بالنقود والخاتم والسترة .

حين عادت كانت مازالت ترتعش - قالت : «السترة تساوى فقط اربعمئة مارك لا أكثر ، والخاتم يساوى فى رأيها ستمئة مارك .. وذلك يعادل ألفا وثلاثمئة مارك .. أليس معك شئ آخر .. أسرع لو سمحت» وهمست «إذا نفد صبره وصعد إلينا فقد ضعنا» .

قال : لدى دفتر الراتب ..

- هاته .. دفتر راتب أصلى يساوى الكثير ..

- وهناك ساعتى ..

قالت ، ضاحكة بعصبية : نعم .. هناك ساعتك .. هل تدور ؟

قال : لا .

ذهبت «أولينا» إلى الباب بدفتر الراتب والساعة ، ثم كان هناك همس منفعل آخر بالبولندية . جرى أندريا نحوها قائلا :

«ها هو بولوفر . ويمكن أن أقدم لك يدا وساقا .. أيمكن أن تستفيدى من ساق إنسانية رائعة لشاب برئ تقريبا ! خذيها لتوازن الأمور ..»

كان يتكلم بصوت واقعى دون انفعال ، وهو لايزال ممسكا بيد أولينا . قال صوت المرأة من الخارج «لا .. ولكن اعطنى حذاءك ونكون قد سوّينا الأمر» .

إن خلع الحذاء مشكلة ، وهو دائما كذلك حين تكون مرتديا حذاء برقبة طويلة لمدة أربعة أيام متوالية بلياليها . لكنه تدبر أمره وخلعهما كما سبق أن فعل حين هدد موقعهم الضجيج المزمجر لتقدم الروس .

ناوله «لأولينا» التى مررته إلى العجوز .

حين أغلق الباب ، وقفت «أولينا» أمامه بشفتين مرتعشتين .

بكت وهى تقول «لا أملك شيئا .. فملابسى تملكها العجوز .. وكذلك جسدى وروحى .. وهى لا تريد روحى .. فالشيطان فقط هو الذى يريد الأرواح .. والرجال أسوأ من الشيطان .. سامحنى لأنى لا أملك شيئا» . وواصلت بكاءها .

قربها أندريا منه ، وربت على وجهها . همس «تعالى .. أريد أن أحبك ..»

تطلعت إليه مبتسمة ، وقالت : «لا .. ذلك ليس مهما الآن» .

ومرة ثانية ، سمعا صوت الخطوات تعود فى الممر متجهة إلى بابهما ، الغريب أنهما لم يعودا خائفين ، وابتسم كل منهما للآخر .

نادى الصوت من وراء الباب : «أولينا» .

وبعد بعض الثرثرة بالبولندية ، عادت أولينا وقالت :

– متى يتحتم عليك أن تذهب ؟

– الساعة الرابعة .

أغلقت الباب دون أن تدير المفتاح ، وعادت لتقول :

– فى الساعة الرابعة ستأتى عربة الجنرال لتأخذنى .

رفعت الجبنة التى دلقت عليها بعض النبيذ بيديها المرتعشتين ، وسحبت مفرش المائدة ، ورتبت كل شئ .

نظر إليها ، إن عاله على وشك الانتهاء، ومازال سيجاره مشتعلا ، ويداه هادئتين وثابتتين الآن .

قال : تعالى لنتناول عشاءنا .

أبعد السيجار ، وجلس قبالتها ، ابتعدا بنظراتهما لعدة دقائق فى صمت وقد احمر وجهاهما لأنهما كانا يتلوان صلاة المائدة ، ووجدا أن ذلك مخجل بعض الشئ لتلاوة الصلاة فى ماخور.

قالت وهما يبدآن الأكل : إنها منتصف الليل .

قال أندريا : الأحد .. اليوم الأحد .

وضع كأسه فجأة ، وترك البسكويت الذى قضم منه قطعة ، لقد أصابه تشنج صعب هاجم فكيه ويديه ، وبالكاد كان يستطيع أن يرى بعينيه . ودون أن يدرى أنه يتكلم .. تمتم مثل طفل يبكى «لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت» .

لابد أنه مجنون ، إنه يشم رائحة طلاء بوضوح ، الرائحة نفسها التى شمها منذ زمن طويل حين كان فى السابعة تقريبا ، وذلك حين طلوا سور الحديقة . كان أول يوم فى الإجازة ، والعم «هانز» قد خرج ، كانت قد أمطرت فى الليل ، وفى اليوم التالى سطعت الشمس دافئة على الحديقة الرطبة ، كان الجو رائعا وجميلا ، يذكر أنه أستطاع أن يشم الحديقة والطلاء بدقة من فراشه ، وكان العمال يضعون طبقة من اللون الأخضر على السياج ، وقد سمح له أن يبقى فى الفراش لأن الإجازة قد بدأت ، كان العم «هانز» فى الخارج ، وقد وعدته خالته «ماريان» بأن تعد له شراب الشيكولاتة مع الفطور ، فى الليلة السابقة ، لأنها خططت أن تستثمر بعض النقود ، وحين تفعل ذلك ، فإنها تشترى ، قبل كل شئ ، شيئا جيدا لتأكله . لكن رائحة هذا الطلاء ، التى يميزها بوضوح ، من أين تأتى ؟ .. إنه جنون . لا يوجد شئ هنا له رائحة ذلك الطلاء الأخضر ، ذلك الوجه الشاحب هناك «لأولينا» ، عاهرة بولندية وجاسوسة ، لاشئ فى الغرفة يمكن أن تكون

رائحته كالطلاء بدرجة حادة تثير ذكريات تلك الساعات البعيدة فى طفولتى . تمتم لنفسه «لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أترك كل شئ ورائى ، لا أحد يمكن أن يجبرنى أن أركب ذلك القطار الذاهب إلى ... إلى ستريج ، لا أحد فى العالم . ربما تكون رحمة منك يا ربى لو فقدت عقلى، لكن لا تسمح بذلك ، حتى لو تسببت رائحة الطلاء بهذا الألم القاسى ، دعنى استطعم مذاق سكرات الموت ، على أن أفقد عقلى . مازلت أسمع صوت الخالة «ماريان» وهى تقول : «يمكنك أن تظل فى الفراش لوقت متأخر فالعم «هانز» فى الخارج» .

سأل بخوف مفاجئ : ما هذا ؟

كانت «أولينا» قد نهضت دون أن يلحظها ، وجلست إلى البيانو ، وارتعشت شفتاها فى وجهها الشاحب ، قالت بهدوء وألم : «المطر» ، كما لو أنها تبذل جهدا لا يمكن وصفه لتفتح فمها ، أو لم تكن لديها القوة لترفع يدها مشيرة إلى النافذة .

نعم ، كان ذلك صوت المطر الرقيق العميق ، الذى أعاده إلى الواقع بقوة ، كانت تمطر على الحديقة والأشجار التى رأى لآخر مرة انعكاس شعاع الشمس عليها .

وضعت أولينا أصابعها على مفاتيح البيانو ، فصاح «كلا .. لا تعزفى» ، وشعر أن الدموع تتدفق من عينيه ، لم يبك فى حياته قط بهذا الشكل الحقيقى ، هذه الدموع كانت حياته – نهر هائج تكون من التقاء جداول لا حصر لها من الذاكرة ، تتدفق وتغرقه فى فيضان من الألم. رائحة الطلاء الأخضر ممتزجة بأيام الإجازة ، جسد العم «هانز» المفزع يستلقى فى أفضل غرف النوم ، ثقيل الحركة بسبب حرارة الشموع المشتعلة . أمسيات عديدة مع «بول» ، والكفاح الصعب الحلو لكى يصبح عازف بيانو ، أيام المدرسة ، وأيام الحرب ، وذلك الوجه المجهول الذى

أحبه ، ووسط كل هذه التيارات العمياء التى تثير الدموع ، كانت الحقيقة الوحيدة هى وجه «أولينا» الأبيض ، يدور بتشنج كأسطوانة فى الفيضان .

كل جلبة هذه الذكريات ، كل هذا الفيضان من الدموع ، أثارته نسمة رقيقة من «شوبرت» – لم يسبق لأندريا أن بكى بهذا القدر ، ربما فى لحظة ميلاده حين اخترقه نور النهار الحاد مثل سكين ،، ثم سمعها ، فجأة ، تعزف نغمة هزت أعماق كيانه ، نغمات «لباخ» ، ولم تكن «أولينا» بقادرة على عزف «باخ» من قبل .

وتصاعدت الموسيقى مثل برج يرفع نفسه طابقا وراء طابق ، تحمله الموسيقى معها وهو يكبر ، مثل نبع عميق ينفجر من سجنه البعيد هناك تحت الأرض ، لينطلق عاليا ، عبر طبقاتها المظلمة من التاريخ المدفون ، يناضل ليخترقها متجها إلى النور . امتلأ بسعادة مؤلمة ، وهو يشعر بذاته ، على الرغم من نفسه ، ليحمل عاليا فوق هذا البرج النقى القوى المتنامى من الصوت ، كما لو أنه تحرر من روابط الجاذبية ، ليرتفع مع الموسيقى وهى تتصاعد ، ومع ذلك كان عليه أن يناضل فى الأعالى كمتسلق جبال سعيد . تلك كانت موسيقى الروح ، وصفاء العبقرية بلا شائبة ، وقد عزفتها «أولينا» بدقة بارعة ، وقوة قاهرة . «باخ» ، لم تكن تستطيع عزفه من قبل ، ربما هى لم تعزف ، ربما الملائكة هى التى تعزف بتفكير صاف وفى أجواء أكثر نقاء وسطوعا .. فى النور .. النور المقدس .

صاح مسحوقا : «توقفى» . وتعلقت أصابع «أولينا» فوق المفاتيح ، كما لو أن الصوت فصل بينها وبين الموسيقى ، ملس على جبهته التى تؤلمه ، ونظر إلى الفتاة الجالسة فى ضوء المصباح الخافت ، لم يزعجها الصوت ، كانت متعبة حتى الموت بعد أن صعدت لنهاية قمة برج الموسيقى بيديها الرقيقتين ، مرهقة فقط ، كانت

زاويتا فمها متهدلتين كطفل متعب لا يستطيع البكاء وقد انسدل شعرها ، ووجهها أبيض وتحيط بعينيها ظلال عميقة .

نهض أندريا واتجه نحوها ، أحاطها بذراعيه ، حملها ومددها على الكنبة ، أغلقت عينيها وتنهدت ، هزت رأسها بلطف كمن تقول : «أريد أن أستريح فقط .. أستريح برهة فى سلام» ، وضعت خدها على الوسادة وراحت فى النوم على الفور ، وكان «أندريا» سعيدا .

استند بكوعيه على المائدة الصغيرة ، وأراح رأسه بين يديه ، وأدرك أنه تعب لدرجة الموت . إنه الأحد ، الواحدة من صباح الأحد . بقيت له ثلاث ساعات ليذهب . عليه ألا ينام ، بل يجب ألا ينام ، فهو لا يجرؤ على النوم . نظر بحب وعطف إلى وجهها البرئ الجميل الصغير الشاحب يبتسم بشكل غير ملحوظ فى سعادة النوم .

لا يجب أن ينام ، لكنه يشعر بالحمل الثقيل للتعب يقهره ، لا يجب أن ينام ، ودعا ربه «لا تدعنى أنام ، دعنى استمر فى النظر إلى وجهها . أحضرتنى هنا إلى ماخور فى لفوف لتعلمنى أنه يمكن أن يكون هناك حب بلا رغبة - كحبى لأولينا - لا يجب أن أنام ، لابد أن استمتع برؤية شفتيها وجبينها وجدائل شعرها تتهدل على وجهها ، وظلال الارهاق القاتمة تحيط عينيها ، لقد عزفت باخ التى لم تكن تستطيع عزفه ، عزفته بكمال شديد فى حدود جهدها .. لا تدعنى أنام» .

والجو تزداد برودته ، وعداء الصباح القاسى يتربص خلف ستائر الليل السوداء ، البرد يتزايد وليس هناك ما أغطيها به ، لقد أعطت السترة للعجوز ، وبللت غطاء المائدة بالنبيذ وألقته على الأرض فى مكان ما ، قد أضع السترة القصيرة فوق فخذيها حيث يكشفهما فستانها القصير ، لم يستطع النهوض

وخلع سترته ، شعر فجأة أنه متعب جدا ، ولم يستطع رفع ذراعيه ، ظل يردد يجب ألا أنام ، فعليه الكثير ليفعله ، يستريح فقط لحظات قصيرة ، وذراعاه على المائدة ، ثم ينهض ويغطيها بسترته ، ويركع على ركبتيه ويصلى قرب الكنبة التى شهدت الكثير من أفعال الخطيئة . سأركع وأنظر إلى وجهها البرئ الذى تعلمت منه أن هناك حبا بلا رغبة ، لا يجب أن ينام .. لا .. لا .. وراح فى النوم .

★★★

حين استيقظ ، كان لديه إحساس بأنه طائر مات فجأة اثناء طيرانه ، وأنه يسقط ويسقط فى فجوة يأس لا قرار لها ، ولكن عينى أولينا المبتسمتين أمسكتا به وانتشلتاه .

خاف أن يكون الوقت قد تأخر ، تأخر فى الإسراع إلى المكان الذى استدعى له ، تأخر على المقابلة الوحيدة التى تستحق التعب .

شجعته ابتسامتها ، وأجابت عن السؤال المعذب فى عينيه ، والذى لم ينطقه ، قالت بهدوء : «لاتخف . إنها الثالثة والنصف» .

آنذاك فقط، شعر بيدها تستلقى بخفة على جبينه ، كان وجهها بمحاذاة وجهه، ولو تحرك برأسه قليلا لقبلها ، من المؤسف أنه لا يرغبها ، وليس تضحية منه ألا يرغبها أو يقبلها أو يغوص فى صدرها الذى يراه البعض داعرا .

لمس شفتيها بشفتيه ، ولم يشعر بأية عاطفة ، نظر كل منهما إلى الآخر بابتسامة مفاجئة ، لكن دون رعشة ، كان الأمر مثل قذيفة ترتد من جدار دبابة مدرعة دون أن تسبب أى ضرر

قالت : تعال . لابد أن أبحث عن شئ تلبسه فى قدميك .

قال : لا . لا تتركينى .. يجب ألا تتركينى لحظة .. لاتهتمى بالحذاء .. يمكن أن

أموت بجواربى .. فلا فرق .. عرفت الكثيرين ماتوا بجواربهم ، متخففين من أحذيتهم ، أثناء الهروب المذعور أمام مفاجأة الهجوم الروسى ، وجوههم تجاه ألمانيا وجروح الرصاص فى ظهورهم . تعرفين أن الجرح فى الظهر هو العار الأكبر عند الاسبرطيين ، لكن الكثيرين ماتوا بذلك الشكل .. لا تفعلى شيئا من أجل الحذاء .. أنا تعب جدا .

قالت ناظرة إلى ساعة معصمها : لا . كان يجب أن أسلمها ساعتى وتحتفظ أنت بحـــذائك .. يظن المرء دائما أن ليس هناك ما يقدمه .. لقد نسيت الساعة تماما .. سأستبدلها بالحذاء دون انتظار .

كرر قوله : لا .. لا أريده ثانية .

رفع عينيه ودار بهما حول الغرفة ، لاحظ للمرة الأولى كم كانت بالية ، بسجادها الناحل وأثاثها البائس ، والكرسيان عند النافذة كانا عتيقين وممزقين ، والاريكة قذرة منفرة .

قالت برقة : اسمع .. سأنقذك . لا تخف .

نظرت إلى وجهه المتعب الشاحب ، وابتسمت .

– هذه العربة التى سيرسلها الجنرال سيكون فيها خلاصنا ، يجب أن تثق بى وتصدقنى حين أقول إنى سآخذك إلى مكان تجد فيه الحياة لا الموت .. أتصدقنى؟

أزعجته كلماتها ، لكنه أومأ موافقا ، وكررت قولها كأنها تتلو تعويذة : حيث نذهب ستكون هناك الحياة لكلينا لا الموت ، ووضعت يدها على رأسه وقالت: هناك أماكن قليلة فى جبال «الكاربات» لايمكن لأحد أن يعثر علينا فيها ، قرية صغيرة فيها بيوت قليلة وكنيسة ولا يوجد حتى رجال مقاومة ، أعرف مثل هذا المكان ، ذهبت إلى هناك عدة مرات ، وقد حاولت أن أصلى ، واعتدت أن أعزف على بيانو قسيس الأبرشية . أتسمعنى ؟

حاولت أن تلتقط بعينيها عينيه اللتين كانتا تتجولان على ورق الحائط المبقع

ببصمات أصابع ملونة وبآثار زجاجات مكسرة . ويمكننا أن نؤلف الموسيقى .. أتسمعنى ؟

قال بشبه أنين : نعم .. ولكن الآخرين .. رفيقى .. لا يمكننى أن اتركهما وحدهما .. ذلك مستحيل .

قالت : فعلا .. لا أتوقع أنك تستطيع ..

قال : ثم السائق .. ماذا تنوين أن تفعلى به ؟

كانا الآن واقفين ينظران لبعضهما ، وشئ ما كالعداء فى عيونهما ، حاولت أن تبتسم ، وقالت برقة : أقسم ، من الآن فصاعدا ، أنى لن أسلم بريئا إلى جلاد .. يجب أن تثق بى . لن يكون الأمر صعبا ونحن وحدنا . بإمكاننا أن نوقف عربة فى أى مكان ونهرب.. ننطلق بعيدا .. لكنى لا أرى كيف يمكننا فعل ذلك ورفيقاك معنا؟

قال رافعا يده ليسكتها : إذن عليك أن تتركينى .. لا أستطيع أن أساوم حول ذلك إما كلنا أو لا أحد أتفهمين ؟

قال ذلك وهو ينظر فى عينيها الجادتين ، وأضاف «لقد أحببت بعضا من هؤلاء الرفاق أليس كذلك ؟

أحنت رأسها ببطء وثقل ، وأدرك أنها إشارة رضى ، وقالت :

– وهو كذلك .. سأرى ما يمكننى عمله .

أمسكت الباب مفتوحا وانتظرته ، ألقى نظرة أخيرة على البار الصغير القذر قبل أن يتبعها إلى الممر شبه المعتم المتناقض مع الاضاءة الشديدة للغرفة التى يتركانها ، كان الجو فى الممر ، فى هذه الساعة الرابعة من الصباح ، باردا ، رطبا وكريها ، كانت الأبواب على الجانبين تشبه أبواب الثكنات ، كلها على نمط واحد ، بالية وقذرة ، وجو من الفقر والبؤس ينتشر فى المكان .

قالت وهى تفتح أحد الأبواب : «تعال» ، كان باب غرفتها الخاصة ، والغرفة مؤثثه بالقليل من الاحتياجات الضرورية : سرير ، طاولة صغيرة ، كرسيين ، حوض على كرسى بثلاث أرجل وبجانبه كوز ماء ، دولاب صغير فى الحائط ، لاشئ يمكن الاستغناء عنه ، بالضبط كغرفة فى الثكنات . إنه أمر غريب جدا ، أن يكون جالسا على سرير ، فى غرفة فى ماخور، يتطلع إلى «أولينا» وهى تغسل يديها ، ثم تخرج حذاءها من الدولاب ، وتخلع شبشبها وتلبسه ، ثم تقف أمام مرآة تستعيد جمالها ، تمسح آثار الدموع عن خديها ، وتبودر وجهها - لا يوجد أبشع من عاهرة على وجهها اثار الدموع - وتطلى أظافرها ، وتفعل كل ذلك بسرعة مضاعفة ، مثل جندى ينتظر أمر الانطلاق .

قالت فى لهجة واثقة : سأنقذك .. هل تفهمنى ؟ سيكون الأمر صعبا لو أصررت على اصطحاب رفيقيك .. لكنى سأتدبر الأمر بشكل ما فإذا عزم المرء فإنه يستطيع عمل الكثير .

كان يناضل من أجل أن يدرك حقيقة الموقف ، ودعا ربه ألا تفقده عقله ، فهو لايستطيع أن يصدق أن كل هذا الذى يحدث حقيقى ، هذه الغرفة البالية العارية الملوءة بروائح كريهة فى ماخور ، وهذه الفتاة التى تقف أمام مرآة تدندن وهى تطلى شفتيها ، كل هذا لايمكن أن يكون حقيقيا ، قلبه متعب ولا يرغب فى شئ ، مشاعره استراحت ، وليست لديه رغبات ، لا يريد أن يدخن أو يأكل أو يشرب ، وروحه التى لاتتوق إلى شئ ، تتشوق إلى النوم ، النوم فقط ، ربما يكون ميتا بالفعل فهو لايستطيع أن يفهم شيئا .

هل هو حقيقة يجلس على سرير ويشد الملاءات كما يفعل المرء أحيانا ؟

هذه الملاءات غير النظيفة وغير القذرة ، الملاءات الشنيعة الملوءة بالأسرار ، وهذه الفتاة أمام المرآة ، التى تسوى حاجبيها الرقيقين الأسودين تقول ضاحكة :

هناك سنصطاد السمك ونطارد الغزلان كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى، هل تعرف هذه الأبيات ، هناك قصيدة المانية تسمى «أرشيبالد دجلاس» تحكي عن رجل نفى من بلاده ، أتفهم ، نحن البولنديين منفيون في بلدنا ، وذلك شئ لايمكن لأحد أن يفهمه ، أنت وأنا اللذان ننتمى إلى القرن التاسع عشر العظيم:

سنصطاد السمك ونطارد الغزلان

كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى

وفى صوت منخفض غنت بعض المقاطع من القصيدة القصصية ، واعتقد أندريا أن تلك هى القشة الأخيرة – صباح رمادى بارد فى ماخور بولندى مع فتاة تغنى له قصيدة من تأليف «لوى» .

ونادى الصوت المسطح نفسه ، من الخارج : أولينا .

– نعم .

– أعطنى الفاتورة واجهزى بسرعة .. العربة فى انتظارك ..

يبدو أن كل شئ حقيقى ، ناولتها الفتاة قطعة ورق صغيرة ، بأصابعها المصبوغة ، مكتوبا عليها كل شئ ، ابتداء من الكبريت الذى مازال فى جيبه وحصل عليه فى الساعة السادسة مساء اليوم الماضى ، كيف يطير الوقت بسرعة! الوقت الذى لايستطيع المرء القبض عليه ، لم أفعل فيه شيئا ، والآن لايمكننى عمل شئ إلا أن أتبع هذا الجمال «المكيج» لتوه ، وأنزل السلم إلى المكتب ، لتسوية الحساب .

سمع «ويلى» يقول : «هؤلاء العاهرات البولنديات .. شئ رائع ذلك ما أسميه الوجدان . ماذا ؟» .

نزل إلى حجرة الانتظار ، المؤثثة ، بالضبط مثل بار ، كراس قليلة مخلعة ، دكة

طويلة ، بساط بال ، وكان «ويلى» يدخن ، أصبح غير حليق ثانية ، وكان يبحث عن سجائر في حقيبته .

قال لأندريا : «إنك أكثرنا تكاليف .. لكنى لست أقل منك .. أما صديقنا الأشقر فهو أقلنا .. لم أدفع شيئا تقريبا لمتعته .. أليس كذلك ؟

وربت على الأشقر الذى كان نصف نائم .

«فقط مئة وستون ماركا» ضحك وواصل حديثه : «يبدو ، فى الواقع أنه قضى الليل نائما ، أعنى نائما فى سرير فتاته . بقيت مئتا مارك بعد تسوية الحساب ، دفعت بها تحت باب الفتاة .. فهى تستحق هدية بسبب عدم تجشمها إلا القليل فى سبيل إسعاده ، هل معك سيجارة ؟

أخذ واحدة ، وشكر أندريا .

أمضت «أولينا» وقتا طويلا غير عادى وهى تتحدث إلى العجوز ، كانت الساعة الرابعة صباحا ، وتلك ساعة يكون العالم كله نائما فيها ، لا صوت يأتى من غرف الفتيات ، وكان الظلام يعم غرفة الاستقبال ، وتلك الغرفة التى استمعوا الموسيقى تنبعث منها ، ظلام عفن ، والصوت الوحيد الذى يسمعونه هو صوت موتور العربة التى تنتظر .

مازالت «أولينا» وراء الباب الأحمر ، وعاد كل شئ ليصبح حقيقيا بالنسبة لأندريا .

قال «ويلى» : هل تظن أن سيارة الجنرال التى تقل فتياته يمكن أن تأخذنا معها ؟

- نعم .

- إنها عربة «مايباك» .. أعرف ذلك من صوت موتورها . نوع جيد . أهناك ما يمنع لو خرجت وتحدثت مع السائق فى الأمر .. بالتأكيد هو ضابط شرف .

حمل «ويلى» حقيبته على كتفه وفتح الباب وخرج ، وكان هناك الليل بخماره الداكن ، وضوء مخروطى كئيب لسيارة تنتظر أمام الحديقة ، كل شئ بدا غريبا وحتميا كما هو دائما فى ليل الحرب ، مملوءا بالتوعد ، والقسوة الساخرة - مخابئ قذرة فى ميدان القتال وأقبية مدن عديدة تنكمش بالخوف - يستحضر المرء فى ذهنه صورة هذه الليالى المرعبة ، التى تصل ذروة رعبها فى الساعة الرابعة صباحا - ليال صامتة مرعبة لليل حرب لا يوصف ، وخارج باب الماخور يقف ذلك الليل المملوء بالرعب ، وبالعرى دون ركن صغير يمكن للمرء أن يختبئ فيه ، ليلة من تلك الليالى التى تثار فيها أصوات السارينات ، إنها تظن ، حقيقة ، أن بإمكانها انقاذى ، تظن أن المرء يستطيع أن يشق طريقه بعيدا عن عين شبكة القدر المنتبهة ، هذه الطفلة تظن أن الهروب ممكن ، وأنها ستجد طريقا تتخطى بها ستريج .. الاسم المكتوب على قلبى منذ ولدت ، يتمدد فى كيانى مجهــولا وفى سبات دائم ، كان هناك وأنا طفل ، ترى هل مرت بجســدى رعدة ، حين كنت فى المدرســة منذ فتــرة بعيدة ، وأنا أدرس ممرات جبــال الكاربات ، وقــرأت كلمات جاليسيا ولفوف وستريج المطبوعة على الخريطة وسط تلك الرقعة الصفراء الشاحبة ؟ أو ربما صياد الموت كان يرمى سنارته نحوى بلا هدف ، والآن فقط أمســك خطافه بســرعة بالكلمة الصغيرة ، مثل عروة كانت تنتظر هناك لتستقبله؟

ستريج . تلك الكلمة الصغيرة المخيفة ، المشبعة بالدماء ، نهضت وانتشرت فوقى مثل سحابة سوداء تظلل كل شئ ، وتلك الفتاة تظن أنها ستجد طريقا تتفادى منه ستريج ! لا أصدق وعدها بأن تأخذنى إلى تلك القرية فى جبال الكاربات حيث تريد أن تعزف على بيانو القسيس ، هذا الحديث القصير عن السلامة لا أصدقه ، ماهى إلا أمنيات فى أن نقطع طريقنا عبر الظلام والحواجز الخطرة إلى حياة السلام والأمان .

وأخيرا فتح الباب، وخرجت «أولينا» ، جفل أندريا من الامتقاع الصارم المرسوم على وجهها ، كانت ترتدى سترة من الفرو ، وقبعة صغيرة ساحرة فوق شعرها الجميل المتهدل ، كانت تحمل حذاء أندريا بيدها ، وساعة معصمها قد ذهبت ، لقد سوت المسألة ، كانت العجوز تبتسم بدهاء ويداها مضمومتان أمامها.

بعد أن حمل الجنود متاعهم ، وفتح أندريا الباب ، قالت كلمة واحدة «ستريج»، كانت «أولينا» قد خرجت ولم تسمعها .

حين استقروا فى السيارة ، وأولينا تجلس بجانب أندريا ، قالت :

– أنا أيضا ملعونة .. لقد خنت بلدى برفضى الذهاب إلى الجنرال وقضائى الليل معك ..

أمسكت بيده وابتسمت له وأضافت : لكن لا تنسى ما أخبرتك .. لاتنسى أنى سآخذك إلى مكان نعيش فيه بحرية .

قال : لن أنسى .

ومرت أحداث الليلة كلها فى ذاكرته ، مثل بكرة خيط رفيع ناعم تنحل ، ثم وصلت إلى عقدة جعلته قلقا ، فقد قالت العجوز «ستريج» فكيف أمكنها أن تعرف ذلك ؟ وهو لم يقل لها كلمة حول الموضوع، وبالتأكيد فإن «أولينا» لم تتفوه بكلمة أيضا، على العموم ، هذا هو الواقع أخيرا ، عربة فخمة بموتور بصوت رقيق ، وأضواء مظللة تنير الشوارع غير المسماة بضوء باهت ، مروا بأشجار وعدد قليل من المنازل مشبعة بالظلام ، يبدو فى الامام ، مؤخر عنقين متشابهين ، عنقان المانيان ثابتان ، على ياقتيهما إشارة ضابط شرف، ورائحة دخان سيجارة تنتشر لتصلهم من مقعد السائق عبر الفتحة الضيقة فى الحاجز الزجاجى بينهما .

كان يجلس فى الجانب الآخر من أندريا ، الجندى الأشقر مثل طفل تعب من اللعب ، وعن يمينه يحس لمسة الفراء الناعمة لسترة «أولينا» ، وفى ذهنه ذكرى تلك الليلة الجميلة - تتسارع فى دورانها مثل بكرة الخيط حتى تصل إلى العقدة - إلى اللحظة التى تفوهت فيها العجوز بكلمة «ستريج» .

انحنى أندريا ليرى الساعة على اللوحة أمام السائق ، كانت السادسة بالضبط، فاجتاحته نسمة خوف باردة ، يا إلهى ! لقد مر وقتى فماذا فعلت به ؟ لم أفعل شيئا قط يستحق الفعل ، لابد أن أصلى وأصلى للجميع ، فى هذه اللحظة يصعد «بول» درجات المذبح ويبدأ القداس ، وبدأ بدوره يتلو صلواته .

وعم سكون مثل يد عملاقة قوية غير مرئية ، غلف صوت العربة الناعم ، سكون مخيف ، قطعه صوت «ويلى» الجاف :

- إلى أين تقودنا بالضبط يا رفيق ؟

أجابه صوت بلا حياة : إلى ستريج .

ثم ، ومضة واحدة ، وانشقت العربة إلى نصفين ، كما لو أنها بفعل نصلين ، وامتلأت بالثقوب من مدافع رشاشة من الامام والخلف ، توقفت ، وانقلبت بحمولتها من الركاب الصارخين ، لم يسمع شئ فى الصمت الذى تلا ذلك ، عدا صوت طقطقة النيران التى تلتهم كل شئ .

وفكر أندريا .. يا الهى .. هل ماتوا جميعا ؟ أين يداى وقدماى ؟

أنا رأس فقط ملقى فى الطريق ، والعالم يضغط على صدرى بثقل يمنعنى من ايجاد كلمات اتلوها للصلاة ، هل أصرخ ؟ وحين شعر بشئ رطب يسيل على خده، أدرك فجأة أن هذه القطرات التى تتساقط على خديه ليست دموعا ، استطاع أن يرى فى غبشة الليل التى لم تبددها الشمس بعد ، يد «أولينا» معلقة فوق رأسه فى حطام العربة ، ودمها ينقط على خديه ، ودون أن يعى بدأت الدموع تفيض من عينيه .

انتهت

كتاب الهلال يقدم

محمود محمد شاكر
قصة قلم

بقلم

عايدة الشريف

يصدر : ٥ نوفمبر ١٩٩٧

رقم الايداع: ١٠٩٢٤ / ١٩٩٧
I.S. B.N
977-07-0551-9



أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب، وقصة، ودراسة، وسير، وبحوث، وفكر، ونقد، وشعر، وبلاغة، وعلوم، وتراث، ولغات، وقضايا، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياسة ... إلخ.

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الابراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفي
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومي
- أم كلثوم .	مجدي سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفي .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومي) .	لوسي يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدي سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدي سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسي يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفي
- سيكولوجية الهدوء النفسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومي
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدي سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الابراهيم
- شعرة معاوية ، وملك بني أمية .	عرفات القصبي قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الابراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٣ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقي بالفجالة - ٤ شارع الإسعاف بمنشية البكري - وكسي
الجديدة - القاهرة ت : ٢٨٢١٩٤٤ - ٩٠٨٩٥٤ - ٥٨٦١٩٧ ج . م . ع / فاكس - 6650